الغمريون ودورهم السياسى بالأندلس
من الفتح إلى نهاية عهد عبد الرحمن الداخل
(٩٣ - ١٧٢ هـ)

دكتور . السيد محمد ابوالعزم داود
كلية الآداب - جامعة طنطا

بسم الله الرحمن الرحيم

« ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير »

صدق الله العظيم

(الممتحنة ٤)

تمهيـــد :

ينسب الفهريون إلى فهر بن مالك بن النضر بن كنانة الذى كان يطلق عليه اسم قريش وينقسمون إلى فرعين كبيرين هما بنو الحارث وبنو محارب .

وقد لعب الفرعان دوراً كبيراً فى أحداث المشرق على نحو ماعرضناه فى بحث المشرق كما كان لهما دور مماثل فى كل من المغرب والأندلس (والأخير موضوع بحثنا) .

فمن الفرع الأول (بنو الحارث) نافع بن عبد القيس الفهرى وابنه عقبة مؤسس القيروان «صاحب الدور العظيم بالمغرب. ومن نسله أبو عبيدة حبيب وابنه عبد الرحمن بن حبيب والى أفريقية ومؤسس الدولة الفهرية بها (١٢٧ - ١٤٠هـ) ومن هذا الفرع بالأندلس يوسف بن عبد الرحمن بن أبى عبيدة الفهرى والى الأندلس (١٢٩ - ١٣٨) الذى نافسه الداخل على حكمها وصارعه حتى غلبه عليها وأعاد ملك بنى أمية بعد انقطاعه من المشرق .

ومن الفرع الثانى (بنو محارب) برز بالأندلس بنو قطن (عبد الملك بن قطن وبنوه أمية وقطن) وقد آلت إمارة الأندلس مرتين لعبد الملك الأولى فى سنة ١١٤: ١١٦هـ والثانية فى سنة ١٢٣ : ١٢٦هـ[١].

ومن خلال تتبع أحداث الفترة الممتدة من الفتح حتى نهاية عهد الداخل يظهر عدد كبير من الفهريين المؤثرين على مجريات الأحداث السياسية بالأندلس مما يثير فى النفس هذا التساؤل لماذا برز هذا الفرع القرشى بالأندلس ؟

ربما كان مرد ذلك إلى أن الفهريين قد برعوا فى فن القتال منذ الجاهلية إذ كانوا ينزلون بظاهر مكة يغزون ويغيرون بينما كانت بقية فروع قريش الأخرى تسكن بطاح مكة وتلازم الحرم . وقد أطلق على القسم الأول قريش الظواهر وعلى الثانى قريش البطائح وكان الظواهر يفخرون بالغزو والغارة على البطائح وتسميها (الضب) للزومها بطاح مكة.[٢]

كما أن أحوال بلاد المغرب والأندلس فى أواخر العهد الأموى كانت تتيح لأصحاب المطامح فرصة لتحقيق مآربهم وأهدافهم . فقد انتقضت بلاد المغرب على الأمويين بسبب ثورة

ميسرة المضغرى وخروج برغواطة عن الطاعة أيضاً بقيادة طريف بن شمعون وابنه صالح[٣].

وقد أوقع البربر بالعرب عدة هزائم راح ضحيتها عدد كبير من حماة العرب كان من أشهرها غزوة الأشراف سنة ١٢٣[٤] وبقدوره سنة ١٢٤[٥]. واستطاع حنظلة بن صفودن قائد جيش الخلافة الأموية أن يوقع بخوارج البربر هزيمتين متتاليتين فى القرن (بالقرب من القيروان والأصنام (بالقرب من طبنة) فى سنة ١٢٥ هـ. وهى السنة التى مات فيها الخليفة هشام بن عبد الملك. ولم تكن أحوال الأندلس فى تلك الفترة بأحسن مماكانت عليه بلاد المغرب ففى سنة ١٠٧ هـ استشهد والى الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبى غازياً فى بلاد الفرنجة مما فتح باب الصراع على الإمارة فقد قدم أهل الأندلس عليهم عذرة بن عبد الله الفهرى أحد فرسان العرب وصلحائهم ثم جاء التقليد من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك ليحيى بن سلمة الكلبى بعد شهرين واستمرت ولاية يحيى حتى آخر سنة ١٠٩[٦]. ثم أصيب المسلمون بهزيمة أخرى فى بلاد الفريخة أيضاً سنة ١١٤ هـ حيث استشهد والى الأندلس عبد الرحمن الفاقفى ومعه خيرة شباب المسلمين وقادتهم حتى أطلق على الموقعة اسم بلاط الشهداء» مما أوقع الأندلس فى أزمة سياسية كبرى إذا انتهز اليمنيون وأحلافهم من المدنيين فرصة موت الفافقى واشتغال والى أفريقية عنهم فأقاموا كبيرهم عبد الملك بن قطن الفهرى والياً على البلاد فى شوال سنة ١١٤ هـ فاضطر والى أفريقية عبيدة بن عبد الرحمن السلمى إلى إقراره[٧]. ولم يخلع ابن قطن يدا من طاعة .

ازدادات أحوال الأندلس سوءاً بتحرج مركز الخلافة فى المغرب فما كادت تصل أنباء هزيمة جيش الخلافة بالمغرب إلى مسامع الأندلسيين حتى هبوا ثائرين أيضاً على عاملهم عقبة بن الحجاج السلولى سنة ١٢٣ هـ وعزلوه أو أرغموه على تقليد عبد الملك بن قطن القهرى الذى ظل على ولائه[٨] وعندما اشتد الخلاف بين اليمنية والمضرية فى إمارة أبى الخطاب الحسام بن ضرار الكلبى (١٢٦ - ١٢٨هـ) إذ نافسه الصميل بن حاتم (زعيم المضرية) وهزمه وأسره فقرر أهل الأندلس تقليد أمر البلاد ليوسف بن عبد الرحمن الفهرى[٩]. الذى استمر والياً (١٢٩ -

١٣٨) إلى أن اقتحم عليه البلاد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام (الداخل) فنافسه على الإمارة وانتزعها منه سنة ١٣٨ هـ .

من خلال هذا العرض الموجز يتضح أن الأندلسيين - فى هذه الفترة - قد أعطوا أنفسهم حق اختيار ولاتهم وأن الخلافة الأموية - غالباً - ماكانت تقرهم على ذلك. وأنهم فى كثير من الأحيان كانوا يلجئون إلى الفهريين - أحد الفروع القرشية القوية بالأندلس - الذين تقلدوا الإمارة أكثر من مرة وأنهم لم يخلعوا يداً من طاعة إلى أن نافسهم الأمويون عليها فكان الصراع الفهرى الأموى بالأندلس على غرار صراع الطرفين فى مرج راهط سنة ٦٤ هـ بالمشرق . وقد شكل ذلك التاريخ السياسى للأندلس على نحو ماسيتضح إن شاء الله .

الدور الفهرى المبكر منذ فتح الأندلس :

إن المتتبع لأحداث الفتح منذ سنة ٩٣ هـ يلحظ الدور البارز للفهريين على مسرح الأحداث السياسية ومجريات الأمور بالأندلس إذ كان منهم قادة وفقهاء معلمين وموجهين كان منهم عياض ابن عقبة الفهرى من خيار التابعين وأحد الأربعة الذين حضروا غنائم الأندلس ولم يغلوا (١٠) وبهذا يكون ابن عقبة قد ضرب المثل فى الأمانة ليقتدى به ويسير على نهجه كل راغب فى تطبيق أحكام الشرع الشريف .

ومن الفهريين المشاركين فى فتح الأندلس أيضاً عبد الله بن شماسة الفهرى (١١). أما أشهر الفهريين جميعاً - المشاركين فى الفتح - فهو حبيب بن أبى عبيدة الفهرى الذى صحب موسى بن نصير عندما خرج فى رجب سنة ٩٣ هـ من أفريقية قاصداً الأندلس لاستكمال عملية الفتح مع مولاه طارق بن زياد . إذ يذكر الرواة أن طارقاً بعد أن جاز الزقاق من جهة مجاز الخضراء دخل الأندلس وأمعن فيها واستظهر على العدو بها وكتب إلى موسى بن نصير يخبره بالفتح، وماحصل من الغنائم فحسده على الانفراد بذلك، وقرر الاشتراك فى أمر الفتح ، فخرج متوجهاً إلى الأندلس بعد أن استخلف على القيروان ولده عبد الله سنة ٩٣هـ، وخرج معه حبيب

ابن أبى عبيدة الفهرى على رأس وجوه العرب كما خرج معه وجوه الموالى وعرفاء البربر فى عسكر ضخم، ووصل من جهة المجاز إلى الأندلس .[١٢]

وأقام موسى بن نصير بالأندلس مجاهداً منتصراً ومرتباً للأمور حتى سنة خمس وتسعين ثم صدع بأمر الخليفة الوليد حين أمره بالقفول بالمسلمين خشية عليهم لتأيهم بدار الحرب وانعزالهم عن دار الإسلام. خرج موسى من الأندلس متجهاً إلى القيروان فوصلها فى سنة ٩٥ هـ ثم ارتحل إلى المشرق سنة ٩٦ بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال بعد أن ولى على افرقية ابنه عبد الله . وكان موسى قبل ارتحاله عن الأندلس قد انزل الرابطة والحامية بثغورها واستعمل ابنه عبد العزيز لولايتها وجهاد أعداء الإسلام[١٣].

وكان من أبرز من ترك موسى من القادة والمرابطة بالأندلس حبيب بن أبى عبيدة الفهرى الذى كانت له الآثار العظيمة فى الفتح مع موسى وابنه عبد العزيز لكن حبيبا - بعد عامين تقريباً من ولاية عبد العزيز - ثار عليه بمن معه من الجند ودبر مؤامرة لقتله . فى سنة ٩٨ هـ. اشترك فيه معه زياد بن النابغة التميمى وأيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى بن نصير[١٤]. ونجحت المؤامرة اتى دبرها هؤلاء وأحكموا تنفيذها. فما أسباب هذه المؤامرة وما نتيجتها؟ .

أما عن دوافع هذه المؤامرة فإن المؤرخين اختلفوا فى شأنها وفسروا. أسبابها وفق وجهة نظرهم .

فأرجعها بعضهم إلى سبب دينى فذكر أن عبد العزيا بن موسى تزوج بامرأة لوذريق التى أطلق عليها اسم (أم عاصم) فعرضت عليه - ليتم ملكه - أن تصنع له تاجاً مما بقى عندها من الجوهر والذهب فرفض فى البداية لأن هذا الأمر لايقره الإسلام ويرفضه المسلمون، فأخبرته بأن ذلك سيوضع عليه فى خلوته بحيث لايشعر به أحد وبعد تردد وتمنع قبل وظل الأمر سراً حتى دخلت عليه يوماً وهو لابس التاج ومعه زوجته امرأة قوطية - من بنات أمراء القوط - كان قد تزوجها زياد بن النابغة التميمى. ولما عادت لزوجها زياد عرضت عليه فكرة مماثلة (عمل تاج له)

فبين لها حكم الإسلام فيه وتحريم لبس الذهب للرجال المسلمين . فأقسمت له بأنها رأته على رأس عبد العزيز بن موسى والى الأندلس فنقل زياد الخبر إلى حبيب القهرى ثم شاع الأمر بين الجند فلم تكن لهم همة حتى كشفوا ذلك ورأوه عياناً فقالوا: تنصر، ثم هجموا عليه فقتلوه فى عقب سنة ٩٨ هـ [١٥] فهل فعل عبد العزيز السابق- إن كان قد حصل - يخرجه حقاً عن دائرة الإسلام ويبيح سفك دمه؟ وهل سفك دمه من حق هؤلاء الثائرين عليه ؟

إن من يحل ماحرم الله ورسوله معتقداً حله فقد كفر ويقام عليه حد المرتد بعد الاستتابة فإن تاب سقط عنه الحد. وأمر إقامة الحد موكول إلى ولى الأمر فقط .

ومن المؤكد أن عبد العزيز - إن كان قد فعل - لم يكن مستحلاً له بل ترضيه لزوجته فى خلوتهما ثم إن هؤلاء الثائرين لم يناقشوه الأمر ونفذوا فيه حكماً ليس لهم تنفيذه. مما يجعلنا نتشكك فى صدق هذا الدافع .

وقد أرجعها مؤرخون آخرون إلى أسباب سياسية فيذكرون أن موسى بن نصير لما قدم إلى دمشق ألفى الخليفة الوليد بن عبد الملك يجود بنفسه فدفع إليه الغنائم متجاهلاً رأى ولى العهد سليمان بن عبد الملك وكان قد طلب منه التريث فى القدوم حتى يكون قدومه فى عهده ليشتأثر هو بالأموال مماكان سبباً فى نكبة موسى بن نصير وتفريغه الأموال الباهظة.: فلما بلغ عبد العزيز ابن موسى فعل سليمان بأبيه غضب وتكلم بكلام خفيف (لام فيه سليمان) حملته عليه حميته لما صنع بأبيه مع حسن بلائه وعظيم جهاده، فبلغت سليمان فخاف أن يخلع بنو موسى طاعة بنى أمية فقد كان عبد الله بن موسى والياً على أفريقية وأخوه عبد العزيز على الأندلس وتحت يدهما قوة لايستهان بها تساعدهما على الاستقلال إذا رغبا فضلاً عن بعد مقرهما عن حاضرة الخلافة الأموية مما يجعل من الصعب كبح جماحهما لذا كتب الخليفة سليمان إلى حبيب الفهرى ومن معه يعلمهم بالذى بلغه عن عبد العزيز بن موسى وماهم به من الخلع وحضدهم على قتله وأعلم حبيباً بأن الذى دعاه إلى ذلك معرفته لمكانته ومن معه، ولأنه بإزاء العدو، وأعطاهم العهود أن من قتله منهم فهو أمير مكانه. [١٦]

وتذكر الرواية أن القوم تشاوروا فيما كلفوا به (قتل عبد العزيز) وخشوا إن جاهروه بالعداء أن يميل إليه معظم الناس لأن فى يده مقاليد الأمور والأموال فأعملوا الحيلة فى الفتك به وضموا إليهم أيوب بن حبيب اللخمى - ابن أخت موسى بن نصير - بعد أن وعدوه بالإمارة بعد قتل عبد العزيز وكانوا قد عرضوا الأمر على عبد الله بن عبد الرحمن الغافقى فرفض وذكرهم بيد موسى بن نصير عليهم جميعاً، وأعلمهم بأن ما بلغ أمير المؤمنين محض افتراء وأن عبد العزيز لم يخلع الطاعة فيستوجب القتل وأنهم يعلمون ذلك جيداً لأنهم يرون مالايراه أمير المؤمنين وطلب منهم ترك هذا الأمر فأبوا ومضوا على رأيهم وقتلوه فى صلاة الصبح، وأعظم ذلك أهل الأندلس فأخرجوا لهم كتاب سليمان بذلك فلم يقبله أهل الأندلس، وحمل حبيب بن أبى عبيدة رأس عبد العزيز بن موسى وقدم بها على سليمان بدمشق[١٧].

ويفهم من الرواية السابقة أن المتآمرين كانوا ينفذون أوامر الخليفة سليمان بن عبد الملك الذى دفعهم إلى تدبير مؤامرة قتل عبد العزيز بن موسى .

بيد أن هناك رواية أخرى أوردها صاحب الأخبار المجموعة تذكر أنه لما بلغ سليمان مقتل عبد العزيز بن موسى شق ذلك عليه فولي إفريقية والأندلس عبيد الله بن يزيد القرشى وأمره أن يتشدد فيما فعله حبيب بن أبى عبيدة الفهرى وزياد بن النابغة من قتل عبد العزيز وأن ينقلهما إليه ومن شركهما فى قتله من وجوه الناس ثم مات سليمان[١٨].

ومعنى ذلك أن الذى حال بين سليمان والقصاص من قتله عبد العزيز بن موسى هو الموت.. ومما يزيد الشك فى هذه الرواية رفض أهل الأندلس للكتاب الذى أخرجه لهم المتآمرون باسم الخليفة كذلك مأأبداه عبد الله بن عبد الرحمن الغافقى - سيد أهل الأندلس صلاحاً وفضلاً وعلماً - من أن عبد العزيز لم يخلع يداً من طاعة وأن المتآمرين ومعهم أهل الأندلس يعملون ذلك جيداً .

وفى اعتقادى أن الباعث الأساسى المحرك للتآمر لقتل عبد العزيز بن موسى هو العنصر القبلى - الذي ظهر مبكراً بالأندلس - حيث تنافست القبائل ورغبت كل ذات شوكة فى

الاستئثار بالحكم فقد حسد حبيب ومعه آل نصير علي استئثارهم بأمر المغرب والأندلس ونسوا أو تناسوا أيادى موسى البيضاء التى قدمها لهم فأعملوا الحيلة لإزالة نعمتهم على أمل أن يحلوا محلهم، ولانستبعد أن يكون هذا الأمر - زحزحة آل نصير - من على حكم الأندلس قد جال بخاطر حبيب الفهرى قبل ذلك لكنه تأجل نظراً لقوة ومكانة موسى وقربه من الخليفة الوليد بن عبد الملك فلما حانت الفرصة ونشب الخلاف بين موسى والخليفة الجديد سليمان اغتنمها أملاً أن يعيد مجد الفهريين الذاهب من المغرب على أرض الأندلس . وربما فسر لنا ذلك أن حبيباً بعد أن خاب مسعاه فى الوصول إلى الإمارة بالأندلس لاجتماع أهلها على أيوب بن حبيب اللخمى[١٩] غادر الأندلس عائداً إلى أفريقية فى محاولة أخرى لبلوغ ماعجز عن بلوغه بالأندلس فتقرب إلى والى أفريقية والمغرب عبيد الله بن الحبحاب (١١٦ - ١٢٤ هـ) وحظى عنده وأصبح أعظم قواده حتى أنه لما تفاقمت الثورة البربرية بالمغرب الأقصى بزعامة ميسرة المضغرى كتب إليه ابن الحبحاب - وكان غازياً بصقلية - يأمره بالرجوع والانضمام إلى الجيش المتجه لقتال البربر فعجل بالقدوم واشترك فى قتال البربر فى ولاية ابن الحبحاب وفى ولاية كلثوم بن عياض حتى قتل مع كلثوم فى بقدود فى سنة ١٢٣[٢٠] أو ١٢٤ هـ . فكانت نهاية آماله التى مالبث أن عادت مرة ثانية ممثلة فى «ابنه عبد الرحمن بن حبيب الذى ظل يسعى لنفس الهدف حتى تحقق له واستقل بأمر أفريقية فى سنة ١٢٧ بسبب ضعف الخلافة الأموية وعجزها فى المشرق فأعلن عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى قيام الدولة الفهرية بأفرقية محيياً أمل أبيه الذى حال الموت بينه وبين تحقيقه.

عبد الملك بن قطن الفهرى والاستئثار بحكم الأندلس:

لم تنقطع أطماع الفهريين فى الوصول إلى إمارة الأندلس والاستئثار بحكمه دون بقية القبائل المنافسة ، وقد تهيأت الفرصة هذه المرة للفرع الفهرى الثانى (بنو محارب) إذ استطاع عبد الملك بن قطن الفهرى الذى حضر موقعة الحرة بالمدينة سنة ٦٣ هـ وفر من قبضة مسلم بن عقبة المرى - قائد جيش يزيد بن معاوية - وأقام بأفريقية - ثم دخل الأندلس فى رمضان

(وقيل شوال) من سنة ١١٤ هـ فألفى واليها عبد الرحمن الفاقفى قد استشهد فى بلاد الفرنجة فى (بلاط الشهداء) فجمع حوله اليمنية وإحلاقهم من البلدين وبمساعدتهم تمكن من الاستيلاء على إمارة الأندلس[٢١].

لم تستمر ولاية ابن قطن الفهرى هذه المرة سوى عامين ثم عزل عن الولاية .

واختلف فى سبب عزله فذكر المقرى أنه أساء السيرة وجار فى الحكومة مما أثار النفوس عليه وأسخطها[٢٢].

بينما يذكر ابن عذارى أنه لما كانت ولاية عبد الله بن الحبحاب عامل مصر وأفريقية (١١٦ - ١٢٣ هـ) وكانت الأندلس تابعة لأفريقية - قدم عليه عقبة بن الحجاج السلولى وكان مولاه فأكرمه وبره ورفع شأنه وخيره فى ولاية ماشاء من سلطانه فاختار الأندلس فولاه عليها فى شوال سنة ١١٦هـ[٢٣].

ومعنى ذلك أن عزل ابن قطن عن ولاية الأندلس كان مجاملة من والى أفريقية والأندلس عبد الله بن الحبحاب لمولاه عقبة بن الحجاج السلولى وليس الأمر كما ذكر المقرى من إساءة السيرة والجور فى الحكومة. ولعل قول ابن عذارى هو الأرجح لأن أهل الأندلس - بعد خمس سنوات - من حكم عقبة بن الحجاج سيثورون عليه ويعزلوه ويقيموا مقامه ابن قطن للمرة الثانية ولو أنه ظلمهم وجار عليهم لما أعادوه ثانية .

ولاتمدنا المصادر - المتاحة - بمعلومات ذات أهمية عن أعمال عبد الملك بن قطن فى فترة - ولايته الأولى سوى ماذكره المقرى من أنه غزا أرض البشكنس فأوقع بهم وغنم[٢٤].

وتشير بعض الروايات إلى أن عبد الملك بن قطن ومن معه لم يخضعوا لقرار العزل وحاولوا معارضة عقبة بن الحجاج وأحدثوا عليه شغباً، فاضطر إلى القبض علي عبد الملك وألقاه فى السجن، ثم نقل عدداً عظيماً من أتباعه إلى أفريقية لكى يهدأ البلد ويستريح من نزوعهم الدائم إلى السلطان والفوضى[٢٥] وهذا يؤكد الصراع القبلى للاستئثار بالحكم . وبهذه الإجراءات استقرت أحوال الأندلس لعقبة - إلى حين - فاستطاع أن يقوم بأمر البلاد بأحسن سيرة

وأجملها وأعظم طريقة وأعدلها [٢٦] كما استطاع أن ينصرف إلى الفتوح فيما وراء البرتات إذ كان ذا بأس ونكاية فى العدو وشدة فتح عدة مدائن منها أربونة وجليقية وبنبلونة وأسكنها المسلمين، وحاول نشر الإسلام فى كل ماوقع تحت يده. فقد كان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام ويقبح له ماسواه وبهذه الطريقة أسلم على يده ألف رجل وفق ماتذكره الرواية [٢٧]. وبالرغم من ذلك فقد أطلت العصبية القبلية من جديد منتهزة عزل ابن الحبحاب عن إفريقية سنة ١٢٣ هـ فقد عقبة بن الحجاج والى الأندلس العون والتأييد مما شجع عبد الملك ابن قطن على أن ينتهز هذه الفرصة فيثب على عقبة ويعزله ويأخذ مكانه [٢٨]. واعتقد عبد الملك أن الأمور استقرت عليه لكن تطور الأحداث فى المغرب قد فرض نفسه على الأندلس. ذلك أن هزيمة جيش الخلافة بقيادة كلثوم بن عياض القشيرى وابن أخيه بلج بن بشر فى بقدورة وقتل كلثوم ولجوء بلج بمن معه (عشرة الاف مقاتل) منهزماً إلى سبته متحصناً بها جعل البربر يتلفون المزروعات حول سبته ويمنعوا وصول الأقوات إليها كى يجوع من بها فيضطر إلى الخروج ويكون من السهل القضاء عليهم. وساءت حالة بلج ومن معه حتى أكلوا دوابهم والكلاب وطبخوا الجلود، والأعشاب وفكروا فى الخروج من هذا المأزق فهداهم التفكير إلى الاستنجاد بوالى الأندلس عبد الملك بن قطن الفهرى فكتبوا إليه يصفون له سوء حالتهم ويطلبون إليه شيئاً من الميرة وأن يرسل السفن لتنقلهم إلى الأندلس.

واستشار عبد الملك بن قطن من حوله فى شأنهم فخوفه عبد الرحمن بن حبيب الفهرى - الذى كان قد فر من بقدورة ووصل الأندلس - عاقبة جوازهم إلى الأندلس وقال له: (هؤلاء أهل الشام يقولون ذلك: ابعث إلينا مراكب نجوز فيها، وهم إن حازوا إليها لم تأمنهم عليك) [٢٩].

ومعنى هذا تعمق الصراع القبلى والتنافس على الإمارة بالأندلس وأن الصراع الذى كان بين بلج وعبد الرحمن بن حبيب قبل بقدوره قد انتقل إلى الأندلس وخشى عبد الرحمن بن حبيب من جواز بلج إلى الأندلس حتى لاينازع الفهريين الإمارة.

إزاء ذلك فإن عبد الملك بن قطن ماطل فى إرسال السفن والمعونة للمحاصرين فى سبته لكن حدث فى ذلك الوقت أن بربر الأندلس - بعد سماعهم انتصار بربر المغرب على العرب - بدءوا يتحركون للثورة على عرب الأندلس، وسرعان ماتفاقمت ثورتهم وأحرزوا انتصارات فى

الجولات الأولى على العرب، فأخرجوا عرب جليقية واسترقه والمدائن التى تقع خلف الدرب ، فلم يرع ابن قطن إلا فلهم قد قدم عليه، وانضم عرب الأطراف كلها إلي وسط الأندلس ، ابتعاداً عن البربر إلا عرب سرقسطة وثغرهم لكثرتهم فلم يهيج البربر عليهم[٣٠].

وبهذا دخل الأندلس فى صراع الأجناس فضلاً عن الصراع القبلى مما جعل أحواله تزداد سوءاً تجاه ذلك أخرج ابن قطن بعض الجيوش لقتال البربر، فهزموها واستفحل أمر البربر وخاف أن يلقى منهم مالقى العرب بالمغرب من إخوانهم. لاسيما بعد أن بلغه أنهم قد عزموا على قصده[٣١] فلم ير بدأ من الاستعانة ببلج وأصحابه فكتب إليهم بخيرهم بأنه على استعداد لإجازتهم إلى الأندلس بشرط ألا يزيد مقامهم فيها عن سنة واحدة ثم يخرجون منها بعد ذلك، وعلى أن يعطوه رهائن - ضماناً لتنفيذ الأتفاق - يضعهم فى الجزيرة على البر فإذا فرغوا من الحرب جهزهم وحملهم إلى أفريقية .. ولم يكن أمام بلج وأصحابه إلا الموافقة على شروط عبد الملك وأبلغوه بأنهم ينتظرون سفنه بفارغ الصبر كى تقلهم إلى الأندلس . فأقلتهم السفن إلى الجزيرة (أم حكيم) أو (الخضراء) فدخلوها وهم عراة لايواريهم إلا الدروع وقد بلغ منهم الجهد والجوع غايته .

وكان أول مافعله عبد الملك بن قطن أن أخذ منهم الرهائن لإبقائها فى الجزيرة ريثما تمضى المدة المحددة لرحيلهم، وأحسن إليهم وكسا خيارهم، وجعل لكل واحد منهم عطاء. وحذا حذوه عرب الأندلس ولم يقصروا فى تقديم كل مساعدة لهم - على حسب قدرتهم - فكسا كل رجلمن خيار عشيرته، فرب رجل كان يكسو مائة منهم وآخر عشرة وآخر واحداً إلى مابين ذلك[٣٢] وأكل الشاميون وشبعوا واستراحوا من عناء الشدة التى عانوها واستعدوا للقاء المرتقب مع خصومهم من البربر .

الصدام بين ابن قطن الغهرى والبربر وأهم نتائجه :

بعد أن أتم ابن قطن استعداده وجه جموعه صوب شذونه حيث كان يقيم جمع من البربر عليهم رجل من زناتة (لم تذكر المصادر اسمه) بدأ ابن قطن بقتالهم فى وادى الفتح من شذونه

فلم يكن للعرب منهم إلانهضة حتى انتصروا عليهم وقتلوا الكثير منهم وغنموا دوابهم وأمتعتهم، وعادوا إلى قرطبة. لكن البربر حشدوا جمعهم من جليقية واسترقه وماردة وقوريه وطلبيرة وأقبلوا فى أعداد لاتكاد تحصى فعبروا نهر التاجة عند طيلطلة يريدون ملاقاة ابن قطن الذى كان قد أخرج لهم أبنية قطناً وأمية على رأس جموع العرب من البلديين والشاميين (أصحاب بلج) فلما بلغ البربر إقبال جيوش العرب نحوهم اقتدوا ببربر المغرب من أصحاب ميسرة فحلقوا رؤوسهم (على سنة الخوارج) ولكى يعرف بعضهم بعضاً فلا يضرب أحدهم صاحبه، ثم ساروا إلى طليطلة والتقوا بجموع العرب عند وادى سليط من أحواز طليطلة، واقتتلوا أشد قتال استبسل فيه جند الطالعة البلجية، فأحرزوا النصر وقتلوا البربر قتلاً ذريعاً ولم ينج منهم إلا الشريد[٣٤]. ثم امتطى الشاميون -بيعد ذلك - الخيل ولبسوا السلاح وامتلأت أيديهم بالغنائم واشتدت شوكتهم وفرقوا جيوشهم فى أرض الأندلس ، يلاحقون البربر فى كل مكان يقتلون ويأسرون حتى أطفأوا جمرتهم وقضوا على خطرهم.[٣٥]

كان من نتيجة هذا الصراع (العربى البربرى) أن أخذت المزارع والقرى تخلوا من سكانها من العرب والبربر ممن كانوا قد اشتغلوا بالزراعة فأخذ كثير من العرب والبربر يهجرون الأرض فراراً من الحرب[٣٦] . فأخذ الخير يقل فى البلاد ، وتوالى ذلك سنوات فازدادت الحال سواء ضاعف من شدتها أن قحطت البلاد وأصابتها مجاعة شديدة أوردها صاحب الأخبار المجموعة فى قوله (فأعقبهم الله بالجوع والقحط فجاعت الأندلس.. فثار أهل جليقية على المسلمين وغلظ أمر علج يقال له بلاى (زعيم الأسبان) وغلب على كورة أشتورش ثم غزاه المسلمون من جليقية، وغزاه أهل استورقه زماناً طويلاً حتى كانت فتنة أبى الخطار وثوابة فلما كانت سنة ثلاث وثلاثين (ومائة) هزمهم وأخرجهم عن جليقية وتنصر كل مذبذب فى دينه وضعف عن الخراج وقتل من قتل، وصار فلهم إلى خلف الجبل إلى استورقه، حتى استحكم الجوع فأخرجوا أيضاً المسلمين عن استورقه وغيرها، وانضم الناس إلى ماوراء الدرب الآخر إلى قورية وماردة فى سنة ست وثلاثين واشتد الجوع فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وأصيلاً وريف البربر ممتارين ومرتحلين، وكانت إجازتهم من وادى بكورة شذونه يقال له وادى برباط، فتلك السنون تسمى (سنى برباط) فخف سكان الأندلس وكاد أن يغلب عليهم العدو إلا أن الجوع شملهم)[٣٧] .

كما كان من نتيجة هجرة البربر وهلاك عدد كبير من العرب والبربر بسبب المجاعة والحروب أن استطاع النصارى السيطرة على الشمال الأسبانى[٣٨] .

منافسة بلج لابن قطن الفهرى على الإمارة :

بعد الانتصارات الكبرى التى أحرزها الشاميون والفراغ من مطاردة البربر كروا راجعين إلى قرطبة فرأى عبد الملك بن قطن أنه لم يعد بحاجة إليهم. وأن مهمتهم قد انتهت وطلب منهم أن ينفذوا وعدهم بالرحيل عن البلاد فطلب منه بلج أن يحملهم إلى ساحل البيرة أو ساحل تدمير. فقال لهم عبد الملك : ليس لنا مراكب إلا بالجزيرة . فقالوا له: إنما تريد أن تردنا إلى البربر ليقتلونا فى بلادهم[٣٩].

فهل كان الشاميون صادقون فى قولهم لابن قطن أم متعللين ؟

فى اعتقادى أن ابن قطن لو استجاب لكل مطالبهم ماغادروا الأندلس وكيف يغادرونها وقد نعموا فيها بعد بؤس وكسوا بعد عرى وتملكوا بعد فقر وعدم وهذا مايتضح من رواية صاحب الأخبار المجموعة الذى يذكر أنه (ابن قطن) لما طلب منهم الخروج قالوا : نعم أخرجنا إلى أفريقية فقال: ليست لنا صناعة تركبونها معاً وقد صارت لكم خيول ورقيق وكسا، ولكن اخرجوا ارسالاً (متفرقين) إلى افريقية قالوا لانخرج إلا مجتمعين قال: فاخرجوا إلى سبته قالوا تعرضنا لبربر طنجة اقذف بنا فى لجة البحر أهون علينا[٤٠] فلما ألح عليه فى الخروج نهضوا إليه ووثبوا عليه فأخرجوه من قصر قرطبة إلى داره بالمدينة - وهى التى يقال لها دار أبى أيوب - ودخل بلج قصر الإمارة عشية يوم الأربعاء فى صدر ذى القعدة سنة ١٢٦ هـ[٤١] وقد بايعه أصحابه بالإمارة واضطرب أمر الأندلس وأقام ابنى عبد الملك يترقبان تطور الأحداث . التى تطرت بسرعة مذهلة معلنة أن هدف الطالعة البلحية هو الاستيلاء على الإمارة والقضاء على ابن قطن ليخلو لهم الجو فى الأندلس[٤٢] . ومن أجل ذلك تذرعوا بأسباب قد لايكون لابن قطن فيها يد.

ذلك أن والى الجزيرة الخضراء من قبل ابن قطن والذى كان بيده رهائن الشاميين أخذ يسئ معاملة الرهائن وأمسك عن امدادهم بالطعام والماء فمات أحدهم من أشراف أهل الشام يقال إنه من غسان[٤٣]. فأرسل بلج من أخرجهم وأقبلوا إليه شاكين سوء تصرف والي الجزيرة وقتله صاحبهم بالعطش وطلبوا إليه أن يثأر لهم من ابن قطن فراجعهم بلج قائلاً: ويحكم لاتفعلوا فإنه رجل من قريش، وكان موت صاحبكم على شبة الخطأ، ولكن أملهوا حتى نرى ماتصير إليه الأمور[٤٤]. لكنهم لم يمهلوه وهددوه بالانقسام واتهموه بأنه حمى لعصبيته المضرية فخشى فسادهم وتفرق كلمتهم وكف عن معارضتهم فى أخذ الثأر من ابن قطن. فأخرج وهو شيخ كبير فى التسعين من عمره كأنه فرخ نعامة من الكبر فجعلوا يقولون له: يافال فللت من سيوفها يوم الحرة ثم عرضتنا لأكل الكلاب والجلود طلباً بثأر الحرة ثم بعث جند أمير المؤمنين فأخرجوه إلى رأس القنطرة فقتلوه وصلبوه عن يسار الطريق وصلبوا عن يمينه خنزيراً وكلباً يساره[٥].

هكذا ثارت النزعة العصبية اليمنية ضد ابن قطن، وأبت إلا أن تثأر من ذلك الشيخ الضعيف لتشفى ضغينتها عليه، ولم يتورعوا عن اتهام قائدهم بلج بن بشر بالعصبية المضرية عندما خوفهم عاقبة قتل هذا الشيخ القرشى، وصور لهم حقدهم على ابن قطن الذى تقاعس عن نجدتهم ومديد العون إليهم - أثناء حصارهم فى سبتة - أنه إنما فعل ذلك ليثأر منهم لما صنعوه يوم الحرة (سنة ٦٣ هـ) بقريش والأنصار فى خلافة يزيد بن معاوية. لكن الأمر بالنسبة لابن قطن لم يكن أمر ثأر أو مايشبه الثأر وإنما كان الدافع لذلك خشيته على سلطانه أن ينازعه فيه هؤلاء وفيهم كثيرون يستندون إلى عصبية قوية من بنى قومهم .

وهذا القول السابق من اليمنية من أصحاب بلج بن بشر دليل على أن الحروب التى حدثت بين المسلمين فى عهد معاوية وابنه يزيد قد تركت فى وحدة المجتمع الإسلامى كسوراً لم تجبر، وخلفت فى قلوب المسلمين حزازات أشبه بحزازات الجاهلية التى جاء الإسلام للقضاء عليها[٤٦].

كما دفع التنافس على الإمارة والرغبة فى الاستئثار بالحكم إلى التعجيل بوضع نهاية حياة ابن قطن «لكى يخلو الجو لبلج وأصحابه» فقد أورد ابن عبد الحكم قوله (أنه لما قدم بلج قرطبة حبس عبد الملك فى السجن ، وثار عبد الرحمن بن حبيب (الفهرى) ومعه أمية بن عبد الملك بن قطن فجمعا لقتال بلج فأخرج عبد الملك من السجن وقال له: قم فى المسجد فأخبر الناس أن كلثوماً كتب إليك أنى خليفته، فقام عبد الملك فقال: أيها الناس إنى والى كلثوم، وإنى محبوس بغير حق فضرب بلج عنقه»[٤٧].

وقد ظن بلج وأصحابه أنهم بذلك قد حسموا الأمر لصالحهم، وأن موت ابن قطن جعل الساحة خالية من المنافسين . بيد أن مصرع ابن قطن لم يحسم الموقف لصالحهم إذ ثار عليهم أمية وقطن ابنى عبد الملك بن قطن وحشدا من ماردة وسرفسطه وغيرهما من مدن الأندلس كل مااستطاعا حشده وانضم إليهما عبد الرحمن بن حبيب الفهرى - وكان من أصحاب بلج - فأغضبه ماصنع بابن عمه (عبد الملك بن قطن) .

كذلك انضم إليهما كثير من عرب الأندلس البلديين الذى ضاق صدرهم بهذه القوة الشامية الوافدة والتى فرضت سلطانها على البلاد وزاحمتهم فى أرزاقهم فخشوا سوء المصير . كما انضم إليهما من نجا من البربر - من المعارك السابقة ضد الشاميين - حنقاً عليهم وكراهية لسلطانهم، وطلب لثأر من قتل منهم بسيوفهم[٤٨] . وانضم إليهما كذلك بعض ولاة الأندلس الموالين لابن قطن كعبد الرحمن بن علقمة اللخمى وإلى أربونة الذى حشد الثغر للطلب بثأر ابن قطن[٤٩].

واضطر بلج إلي أن يخوض مع خصومه من الفهريين ومن شايعهم معركة ضارية فى إحدى قرى أفوه برطورة من أقليم ولبة وانجلت المعركة عن آلاف من القتلى ومات بلج فى اليوم الثانى للمعركة من أثر سهم فوقه إليه ابن علقمة. وذلك فى شوال سنة ١٤ هـ (٧٤٢م) بعد ولاية استمرت اثنى عشر شهراً[٥١].

لم تضع وفاة بلج حداً للصراع الدائر بالأندلس إذ بايع الشاميون ثعلبة بن سلامة العاملى فى شوال من نفس السنة فجمع له أهل الأندلس جمعاً كبيراً من العرب والبربر بماردة فالتقى بهم

وقاتلهم قتالاً شديداً فلم يكن له بهم طاقة فتحصن بماردة واعتصم بها وطلب من نائبه على قرطبة مددا لمناجزتهم. وقد انتهز ثعلبة فرصة عيد الأضحى وتفرق الناس وانتشارهم فخرج عليهم وهزمهم وقتلهم وسبى ذراريهم وقاد السبايا حتى نزل المسارة بقرطبة وأخذ يبيعهم لمن ينقص الثمن حتى باع أحدهم بكلب وآخر بعنود ولم ينقذهم من هذا الخزى إلا قدوم أبى الخطار الحسام بن ضرار الكلبى والياً على الأندلس من قبل حنظلة بن صفوان عامل افريقية للخليفة هشام بن عبد الملك فأطلق السبى وسمى ذلك العسكر (عسكر العافية) وهرب ثعلبة وعثمان بن أبى نعسه وعشرة من قواد الشام وأمن أبو الخطار ابنى عبد الملك بن قطن (أمية وقطن) فاستقامت حال الناس بالأندلس (٥٢).

وهذا الذى جرى بالأندلس بين جند الشام بقيادة بلج وثعلبة وابنى عبد الملك بن قطن ومن شايعهما من الأندلسيين، وإن لم يكن صراعاً قبلياً بالمعنى الدقيق للكلمة إلا أن الرغبة فى الثأر والنزعة القرشية كانت عاملاً رئيسياً فيه، كما أن آثار الصراع السياسى والحزبى بين قبائل الشام وأهل المدينة فى خلافة يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٣هـ) كان لها صدى فى هذه الأحداث (٥٣).

احتدام الصراع القبلى وعودة الفهريين للإمارة (١٢٥ - ١٢٨هـ)

بدء أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى ولايته بدءاً حسناً فأطلق الأسرى من قبضة ثعلبة ابن سلامة العاملى وأمن ابنى عبد الملك وأتباعهما من المروعين بعد هزيمتهم على يد ثعلبة ، وأخرج من الأندلس نفراً من المسرفين فى عصبيتهم من الشاميين وأعادهم إلى إفريقية وفيهم ثعلبة بن سلامة (الوالى السابق) وانتهى به التفكير إلى ضرورة إبعاد الشامية القيسية عن قرطبة إذ كانت تضيق بهم وتخلصا من متاعبهم وتوسع لهم فى البلاد .

فأنزل فى كورتى أكشونة وباجة جند مصر مع البلديين الأول، وأنزل باقيهم فى كورة تدمير. وأنزل فى كورة لبلة وأشبيلة جند حمص مع البلديين الأول أيضاً. وأنزل فى كورة شذونة

والجزيرة جند فلسطين . وأنزل فى كورة رية جند الأردن. وأنزل فى كورة البيرة جند دمشق، وفى كورة جيان جند قنسرين وبهذا الإجراء تفرق الجند المشاغب فى نواح شتى متباعدة فهدأ أمرهم لكن إلى حين .

وكان إنزالهم على أموال أهل الذمة من العجم من أرض ونعم. وبقى العرب البلديون على أرزاقهم وأراضيهم لم يعرض لهم فى شئ منها فسروا بذلك، كما سر بذلك الشاميون فيما بعد إذ وجدوا أنفسهم فى بلاد تشبه بلادهم فاستقر بهم المقام وتحسنت أحوالهم المعيشية وتمولوا . ولقد قد استمر أبو الخطار على هذه السياسة العادلة والاصلاحات الإدارية الناجحة لصلحت الأحوال وقضى على العصبية المقيتة التى فرقت الأندلس فى ذلك الحين شر ممزق. ولكنه لم يلبث أن حاد عن الجادة - التى جمعت الناس عليه - ومال إلى العصبية اليمنية التى ينتمى إليها فأخذها الناس عليه وأعلنوا التذمر وبدأت الفتنة تطل برأسها من جديد .

ولاتذكر المصادر تفاصيل عن تصرفات أبى الخطار المتسمةبالعصبية اليمنية ولاتقدم سببا واضحاً لها مكتفية بكلام عام عن الموضوع مضمونة أن أبا الخطار أظهر فى ولايته الميل إلى اليمنية وتحامل على المضرية فأسخط قيساً وأهاج الفتنة العمياء[٥٥]. وكلها أجمعت على رواية تقدم صورة لهذا التعصب اليمنى مضمونها أن أحد بنى كنانة (من مضر) اختصم عند أبى الخطار مع رجل من قومه (اليمنية) وأن الحق كان مع الكنانى لكن أبا الخطار حكم لليمنى. فشكا الكنانى حيف أبى الخطار إلى الصميل بن حاتم (زعيم المضرية) الذى تدخل لأجل الكنانى لدى أبى الخطار. لكن أبا الخطار لم يكتف بذلك بل أهان الصميل وأمر جنده بضربه بالسوط فمالت عمامته فتركها على حالها وخرج فلما رآه بعض من على الباب سأله عن سبب ميل عمامته فقال: «مهدداً متوعداً» إن كان لى قوم فسيقيمونها[٥٦].

وهذه الرواية وإن قدمت صورة الحيف اليمنى والتعصب على المضرية إلا أنها لاتقدم الداقع الذى حدا بأبى الخطار إلى التحول عن سياسة المعتدلة السابقة وقد ذكر بعض المؤرخين المحدثين رواية عن الضبى توضح ذلك وهي مقتل صديق عزيز على أبي الخطار وهو سعيد بن جواس وأنه اتهم القيسية بقتله وأخذ يتحيفهم وينزل بهم مايستطيع من الأذى[٥٧].

وأيا كان الأمر فإن ماأصاب الصميل على يد جنود أبى الخطار كان الشرارة التى أشعلت النار فأتت على كل شئ. إذ جمع الصميل قومه وشكا إليهم مالقى فقالوا: نحن تبع لك[٥٨] بهذا التقويض بدأ الصميل فى الاستعداد لرد اعتبار المضرية وزحزحة أبى الخطار عن الولاية فأعمل الحيلة وضم إليه فريقاً من اليمنية - جذام ولخم - المنافسين لأبى الخطار الكلبى وجعل زعيمهم ثوابة بن سلامة الجذامى مقدماً على الأندلس . كما عمد إلى لم شمل المضرية كلها حيث قام بترضية أبى عطاء القيسى - منافسة على زعامة المضرية - حيث ذهب إليه فى مقر إقامته باستجة واسترضاه وكسبه إلى جانب[٦٠]. وبهذه التصرفات الذكية الماكرة استطاع الصميل أن يضعف جبهة خصمه أبى الخطار فعندما التقى الخصمان فى رجب سنة ١٢٧هـ عند وادى لكه تقاعس معظم اليمنية عن قتال بنى عمومتهم من جذام ولخم وتركوا أبا الخطار فى قلة وولوا مدبرين فلم يلبث إلا يسيراً حتى أسر[٦١] . وأودع سجن قرطبة . واستولى ثوابة على القصر . لكن أبا الخطار فر من سجنه بمساعدة عبد الرحمن بن نعيم الكلبى وحاول استرداد إمارته. فجمع حوله جموع اليمنية وبالرغم من هذا فقد أفسد عليه الصميل محاولته عن طريق الحيلة أيضاً إذ أقنع جنود أبى الخطار من اليمنية بأن أبا الخطار كان بيده ولو أراد قتله لفعل، كما بين لهم أنه لاحق لهم فى الحرب لأن الأمير منهم (ثوابه بن سلامة الجذامى) فلما عقل ذلك من حول أبى الخطار تداعوا للرحيل ليلاً بعيداً[٦٣] عن قرطبة التى كان يحاصرها أبو الخطار وجنوده، ولم يجد أبو الخطار بداً من الانسحاب بعد أن أفسد عليه الصميل أمره بحسن تدبيره. وبعد هذا الانتصار الأخير بنحو عام آخر سنة ١٢٨ وأوائل سنة ١٢٩ توفى ثوابة الجذامى[٦].

وعقب وفاة ثوابة اشتد الصراع بين الفريقين (اليمنية والمضرية) وأقامت الأندلس أربعة أشهر من غير وال، إلا أنهم قدموا عبد الرحمن بن كثير اللخمى للنظر فى الأحكام[٦٥].

أما بالنسبة للولاية فقد اتفقت كلمة مضر على تقديم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى على أنفسهم[٦٦] . بينما ظهر فى جبهة اليمن عدد من المنافسين لأبى الخطار منهم عمرو بن ثوابة ابن الوالى المتوفى الذى اعتبر نفسه أحق بالأمر من غيره. كما دعا إلى نفسه يحى بن حريث

الجذامى لأن قومه أكثر من قوم أبى الخطار إزاء ذلك اجتمعت كلمة اليمن على تقديم ابن حريث[٦٧].

فلحق خبار اليمن بابن حريث من كل جند، ولحق خبار مصر بيوسف لايعرض أحد لأحد يخرج الجوار فيودع بعضهم بعضاً حتى يلحق كل رجل بقومه، وهى أول حرب فى الإسلام بهذه الدعوة[٦٨] (العصبية) وأمام هذا الخطر الداهم تراضى عقلاء الفريقين إلى اقتسام الإمارة بين اليمنية والمضرية بحيث تكون عاماً لمضرى وآخر ليمنى، واعتقدوا أن فى هذا نهاية للنزاع بينهم[٦٩]. ولم يكن أمام المتنازعين إلا أن يتفقوا على أول وال ينصبونه على الأندلس ، ثم تراضوا واتفقوا على تولية يوسف الفهرى وعلى أن يدعوا لمنافسة ابن حريث كورة رية طعمة[٧٠]. على أن يعودا إلى الاجتماع بعد عام من ذلك التاريخ سنة ١٢٩ هـ (٧٤٧م) ليقرروا من هو اليمنى الذى سيخلف يوسف فى الولاية .

وبهذا تكون ولاية يوسف الفهرى قد جاءت بإجماع الأندلسيين وذلك نظراً للمكانة المرموقة للفهريين بالأندلس إذ ذاك فهم ذؤابة قريش وكانت قريش فى هذه المنازعات كلها حياداً لاتسرف فى الميل إلى فريق دون فريق[٧٢] فترك للأندلسيين حرية الاختيار .

وقد كان هذا الإجراء كفيلاً بالقضاء على روح العصبية وتجنيب الأندلس ويلاتها - لو صدقت النية - وعاملاً مؤثراً على استقرار الأوضاع بالأندلس .

لكن ماكادت الأمور تستقر ليوسف القهرى حتى فكر فى التخلص من يحيى بن حريث وإبعاده عن الساحة السياسية فعزله عن كورة رية . مما أغضب ابن حريث فكاتب أبا الخطار واستنفرا اليمنية فاتفقت كلمة اليمن بالأندلس على تقديم ابن حريث . وانحازت مصر وربيعة إلى يوسف واستعد الفريقان للقتال[٧٣].

فلماذا غدر يوسب بابن حريث وقدومه ؟ وماأثر ذلك ؟

يرجع البعض سبب الغدر إلى تحريض الصميل الذى كان يخشى ابن حريث المعروف بكراهيته الشديدة للشامية التى ينتمى إليها الصميل ويستشهدون بقول ابن حريث : لو أن دماء أهل الشام جمعت لى فى قدح لشربتها[٧٤].

وفى تصويرى أن يوسف القهرى خشى إن سلم الإمارة لليمنية - حسب الاتفاق السابق -

أن تفوته فلم يرد أن يضيع الفرصة السانحة من يده انتظاراً لما تأتى به الأقدار ورغبة فى الاستئثار - بالإمارة - وأن تحريض الصميل لو لم يوافق هواه مافعله .

وقد أدى ذلك إلى حتمية اللقاء بين المتنافسين لتقرير من سيؤول إليه أمر الأندلس أليمنية وزعيمها ابن حريث ؟ أم للمضرية وزعيمها يوسف الفهرى ؟

موقعة شفندة سنة ١٣٠ هـ (٧٤٧م) وتقرير أمر الأندلس .

بلغت العصبية أوجها وانقسم عرب الأندلس إلى معكسرين واضحين (يمنية) و (مضرية) ولم يبق أحد لم ينحز إلى أحدهما، وقد انعكس أثر هذه العصبية على القتال بين الجانبين إذ كان فريداً فى بابه هذه المرة[٧٥].

فقد زحف ابن حريث ومعه أبو الخطار بجموع اليمنية نحو قرطبة حيث يوسف ومعه الصميل ونزلت اليمنية فى الجهة القبلية من نهر الوادى الكبير وعكسرت فى شفندة فعبر يوسف الفهرى بمن معه من المضرية النهر إلى معسكر خصومة ودارت المعركة بعد صلاة الصبح فتطاعنوا على الخيل حتى تقصفت الرماح وثبتت الخيل وحميت الشمس، ثم تداعوا للبراز فتنازلوا بالسيوف حتى تقطعت ثم تقابضوا بالأيدى والشعور ولم يكن فى الإسلام صبر مثله إلا ماذكر من صفين . فلما أعيى بعضهم بعضاً توقفوا يضرب بعضهم وجوه بعض بالقس والجعاب وبحثوا بعضهم التراب على بعض.[٧٦]

ويصف ابن عذارى المعركة فيقول (والتقت بشقندة الفئتان، وتصادمت الفرقتان فما تسمع إلا صهيلاً وصليلاً، ولاترى إلا قتيلاً، حتى تكسرت الخطيات (الرماح) وتفللت المشرفيات (السيوف) والتقت الساق بالساق، وانضمت الأعناق إلى الأعناق فلم يعهد حرب مثلها فى المسلمين، بعد حرب الجمل وصفين)[٧٧].

وبينما القوم على هذه الحال من الصبر على شدة القتال إذ خطر للصميل خاطر باح به ليوسف الفهرى وأرشده إلى الاستعانة بأهل سوق قرطبة، وعلى الفور أرسل إليهم يوسف مولاه

خالد بن يزيد وصاحب آخر له فاثارا حمية نحواً من ٤٠٠ راجل معهم الخشب والعصى وقليل منهم السيوف والمزارق، وحمل الجزارون سكاكينهم وهاجموا اليمنية بعنف فى الوقت الذى كانت قوى هؤلاء قد خارت وعلى حد تعبير صاحب الأخبار المجموعة فجاءوا إلى قوم موتى فجردوهم وقتلوا وأسروا بشراً كثيراً منهم أبو الخطار فهموا بقتله فقال لهم : ليس على فوت ولكن عندكم ابن السوداء ابن حريث فأرشدهم عليه فأخرجوه من تحت سرير الرحى بموضع بيع الخشب وقتل هو وأبو الخطار[٧٨].

وزيادة فى التشفى من اليمنية أنزل المضريون بأسراهم صنوفاً من الذل والهوان والقتل ولم ينقذهم إلا غضب أبى عطاء القيسى الذى أمر باغماد السيوف ومنع الإسراف فى التشفى من اليمنية وحذر الصميل من مغبة ذلك فأمن الناس على يد أبى عطاء بعد بلاء عظيم[٧٩].

تلك كانت خاتمة أبى الخطار الذى قدم الأندلس ليصلح أحوالها فزادها سوءاً، وأراد أن يستنقذ اليمنية من استبداد القيسية ففقد حياته وحياة كثيرين ممن ساروا معه ووافقوه على رأيه . ودفع باليمنية إلى وهدة من الهزيمة لن تنهض منها إلا فى ظلال صقرقريش (الداخل) .

الأندلس فى عهد يوسف الفهرى ١٢٩ - ١٣٨ هـ :

بعد موقعة شقندة فى سنة ١٣٠ هـ استقرت الأمور ليوسف الفهرى، واجتمع الناس عليه ولم يعترضه أحد[٨٠] وعلا شأن الصميل بن حاتم أيضاً وتمكن بالدولة قصار يقرب منه من شاء ويبعد من شاء مما دعى بعض المؤرخين إلى القول بأنه بسط سلطان حتى أصبح ليوسف اسم الإمارة وللصميل رسمها وحقيقتها[٨١] وأرجع بعضهم ذلك إلى ضعف شخصية يوسف إذ كان جباناً متردداً[٨٢] .

بيد أن ذلك ليس صحيحاً - من وجهة نظرى - بدليل أن يوسف لما رأى ازدياد نفوذ الصميل قرر إبعاده إلى سرقسطة سنة ١٣٢ هـ ليشغله بنفسه وعن قبله ويبعده عن أمور الدولة فقد كانت سرقسطة عاصمة الثغر الأعلى المتاخم لنصارى الشمال. كما كانت واقعة تحت سيطرة

اليمنية - أشد أعداء الصميل - فإما أن يخضعهم الصميل وإما أن يقضوا عليه فيستريح يوسف الفهرى من نفوذه. وهو مايؤكده قول صاحب الأخبار المجموعة (وكان يوسف قد أخرج الصميل ووجهه إلى الثغر الأكبر اسداده ... وكان الثغر لليمن فأراد أن يذلهم[٨٣].

ومما يؤكد القول السابق أن يوسف (كان يتحين الفرصة للخلاص من الصميل) أنه لما ثار - الحباب بن رواحة وعامر بن عمرو العبدرى على الصميل بسرقسطة سنة ١٣٧ هـ أسرعت اليمنية والبربر لمساعدتهما وحصرو الصميل بسرقسطة حصاراً شديداً استمر ستة أشهر حتى يئس من الحياة، وهم بالاستسلام وكتب إلى يوسف يسأله الإمداد فأبطأ عليه متعللاً بالظروف السيئة التى تمر بها البلاد آنذاك بسبب الجماعة[٨٤]. التى كانت تعتور الأندلس سنة محل وسنة غيث من (١٣١ إلى ١٣٦هـ) ولم ينقذ الصميل من هذا الحصار إلا استنجاده بالقيسية فى الأقاليم الأخرى فهبوا لنجدته فلما علم المحاصرون بقدوم المدد القيسى فروا[٨٥].

وخلاصة القول أن العلاقة التى كانت تربط بين يوسف الفهرى والصميل كانت علاقة مصلحة فقد حتمت الظروف على الصميل - رأس المضرية - أن يمهد طريق الإمارة ليوسف الفهرى لأنه سيد الفهريين بالأندلس ويستند إلى عصبية قرشية قوية ويعيش فى بادية معتزلاً فى جماعة من أهل الديانة والإظهار للخير[٨٦]. وهو الشخص الذي يرضاه اليمنيون ويأمن جانبه القيسيون .

كما أن يوسف الفهرى وسط هذا الصراع المحتدم بالأندلس كان بحاجة إلى شخصية قوية ذات عصبية قوية (كالمضرية) لتؤازره وتقف بجانبه كلما دعت الحاجة إلى ذلك فكان الصميل . من هنا التقت مصلحة الاثنين وسعى كل منهما إلي الآخر . وتوثقت الصلاة عن طريق المصاهرة إذ كان قطن بن عبد الملك القهرى زوجاً لأم موسى بنت الصميل[٨٧].

على أن علاقتهما لم تسر على وتيرة واحدة بل مرت بمراحل ثلاث مختلفة فى الأولى (١٢٩ - ١٣٢هـ) سيطر الصميل على مقاليد الأمور باعتباره المهد لإمارة يوسف ولغنائه فى مرقعة شفندة التى مكنت ليوسف فى الأرض .

وفى الثانية (١٣٢ - ١٣٧هـ) احكم يوسف قبضته على مقاليد الأمور وأبعد الصميل إلى سرقسطة وكان على الصميل أن يستجيب لرغبة يوسف - وإن لم توافق هواه - من ذلك أن بعد فك حصار سرقسطة استقدمه يوسف إلى قرطبة فأجاب ثم غزاها يوسف سنة ١٣٧ هـ وقتل العبدرى والزهرى، الثائرين على الصميل ولم يعد الصميل لحكمها بل اسند أمرها إلى ابنه عبد الرحمن بن يوسف الفهرى ليأمن جانبها (٨٨).

وفى هذه الفترة (الثانية) برز دور يوسف السياسى والحربى فأمن دولته ودفع عنها الأخطار فعندما ثار أهل جليقية فى سنة ١٣٣ أرسل إليهم البعوث وردد عليهم الغارات وعندما نقض اليشكنس ببنبلونه الصلح بتأثير أهل جليقية أرسل إليهم يوسف الفهرى جيشاً على رأسه سليمان بن شهاب (٩٠) بل إن يوسف الفهرى غزا بنفسه جليقية فى ١٣٧ هـ ولم يثنه عن عزمه إلا نبأ وصول الداخل إلى الأندلس مما عجل بعودته إلى قرطبة (٩١).

كما قضى يوسف الفهرى على ثورة عبد الرحمن بن علقمة اللخمى بأربونة (٩٢) . وعندما ثار عليه عروة بن الوليد بباجة فى أهل الذمة وغيرهم وسيطر على أشبيلة وكثر جمعه فخرج إليه يوسف وحاربه حتى قتله (٩٣).

أما الفترة الثالثة فكانت فى سنة ١٣٨ هـ حيث حتمت الظروف على كليهما (يوسف والصميل أن يتعاونا للتصدي للخطر الداهم القادم عبر العدوة والمتمثل فى عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) الفار من سيوف العباسيين والطامع فى إعادة سلطان بنى أمية بالأندلس .

وفى هذه الفترة اضطرب أمر يوسف الفهرى وأصبح بحاجة إلى تأييد الصميل ذا العصبية القوية والرأى والمشورة والمكيدة . وفتحت صفحة جديدة مختلفة فى العلاقات الفهرية الأموية سنوضحها إن شاء الله فيما يلى :

العلاقات الفهرية الأموية بالأندلس :

اتسمت العلاقات الفهرية الأموية بالأندلس فى فترتها الأولى (٩٣ - ١٣٨ هـ) بالوفاق والوئام نظراً للصلة القوية بين هذين الفرعين القرشيين . فقد شارك بعض القادة الفهريين من أمثال عياض بن عقبة الفهرى وحبيب بن أبى عبيدة الفهرى فى فتح الأندلس فى خلافة الوليد بن عبد الملك وكانوا محل ثقتهم ويدهم الباطشة بكل من تسول له نفسه مناوأة الأمويين وقد سبق أن ذكرنا أن بعض الروايات أن الخليفة سليمان بن عبد الملك عندما خشى من عبد العزيز بن موسى أن يستقل بالأندلس كلف حبيب الفهرى بقتله .

وقد ظل الفهريون على ولائهم للأمويين خلال هذه الفترة حتى من ولى أمر الأندلس من الفهريين بناء على رغبة أهلها كانوا يعلنون طاعتهم لبنى أمية فابن القوطية عند حديثه عن ثورة أهل الأندلس على واليهم عقبة بن الحجاج وخلعه يقول وكان القائم بذلك عبد الملك بن قطن الفهرى المولى ولم ويخلع دعوة ولاطاعة[٩٤].

وكان يوسف الفهرى موالياً للأمويين - رغم أن ولايته لم تكن من قبلهم - فقد تصدى للعبدرى (عامر بن عمرو) وللزهرى (الحباب بن رواحة عندما أعلنا الدعوة العباسية بها ودعا الناس إلى سجل أبى جعفر المنصور) فأجابهم عدد غفير من اليمن والبربر وغيرهم وعبثاً حاول الصميل بن حاتم - والى سرقسطة من قبل يوسف - القضاء عليها بل أنهما حاصراه فى المدينة. فلما رأى ذلك يوسف عزم على تخليص سرقسطة من قبضتهما والغاء الدعوة العباسية بها وتمكن من القبض عليهما ثم قتلهما وضبط الأمن وأعاد الولاء للأمويين وذلك فى ذى القعدة سنة ١٣٧ هـ[٩٥].

وكذلك كان يوسف الفهرى يعتبر موالى بنى أمية مواليه ويقدمهم عند الخطر يذكر المؤرخون أنه فى سنة ١٣٧ عندما عزم على الخروج إلى الثغر غازياً طلبت من أبى عثمان عبد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد زعيمى الأموية بالأندلس أن يخرجا مواليه (يقصد موالى بنى أمية) للتوجه إلى الثغر. فلما اعتذرا له بسبب الشدة وانتشار المجاعة وقسوة الشتاء قبل قولهما وأخرج إليهما ألف دينار تقوية لهم .

وفى المقابل كان زعماء الأموية ومواليهم بالأندلس يخضعون ليوسف ويستجيبون لرغبته ويمدون له يد العون عند الحاجة فقد كانوا مع يوسف الفهرى فى موقعة شقندة ضد أبى الخطار وابن حريث واليمنية وأبلوا بلاءً حسناً مكن يوسف من الإمارة[١٧] ثم إنهم سارعوا لنجدة الصميل بن حاتم -والى سرقسطة ليوسف - وبمساعدة موالى الأمويين المقيمة تمكن الصميل من فك الحصار الذي كان مضروباً عليه لسرقسطة من العبدرى والزهرى(٩٨).

استمرت العلاقة الودية بين الفهريين والأمويين بالأندلس حتى قدوم الداخل إلى الأندلس سنة ١٣٨ هـ وبدأ يزاحم يوسف الفهرى على الإمارة ويطلب ملك آبائه هنا تعارضت المصلحتان واختلفت وجهتا النظر فيوسف الفهرى يريد أن تظل إمارة الأندلس له ولعقبة ماأمكن وعبد الرحمن بن معاوية (الداخل) ينشد ملك آبائه ويسعى إلى إعادته بالأندلس.

وللحقيقة والتاريخ فإن يوسف الفهرى كان ينأى ويتحاشى الصدام مع الأمويين ذلك أنه لما بلغه نزول ابن معاوية بطرش عند أبى عثمان واجتماع الموالى الأمويين إليه واسراع الناس إلى الداخل والتنادى بشعار الأمويين ومغادرة معكسر يوسف[٩٩] عند ذلك استشار يوسف أصحابه فأشار عليه الصميل بمبادرته قبل أن يغلظ أمره. وأشار عليه آخرون بأن يعرض على الداخل المصاهرة ويوسع عليه ويكسبه إلى جانبه[١٠٠] فآثر يوسف الرأى الأخير على أمل أن يقنع الداخل بالتوسعة والمصاهرة مع أن الرأى الأول هو الأوفق والأحزم لمن يريد الملك والجاه .

وتمشياً مع الرأى الثانى بعث يوسف إلى الداخل وفداً من قرطبة على رأسه كاتبه ومولاه خالد بن يزيد وبرفقة الوفد هدية ضمت كسى وفرسين وبغلين ووصيفين وألف دينار وكتاب يذكر له فيه اصطناع آباء الداخل لجد يوسف عقبة بن نافع ولأهله ويدعوه إلى الصهر والتوسعة عليه[١٠١].

لكن هذه السفارة باءت بالفشل . فما أسباب ذلك ؟

يورد بعض المؤرخين أن الأمويين بالمشرق وعلى الأخص مسلمة بن عبد الملك كانوا يتنبئون لعبد الرحمن بن معاوية ملكاً بالمغرب فكان يحدث نفسه بذلك[١٠٢] ومعنى هذا أن الذى دفع

الداخل إلى الإصرار على الإمارة هذه النبوءة. بيد أن هذه الرواية لاتسوغ التمسك بالإمارة لأن الداخل يعلم - كما يعلم غيره - كذب المنجمون ولو صدقوا .

وهناك رواية أخرى تعزو سبب الفشل إلى خالد بن يزيد كاتب الفهرى ورئيس وفد المفاوضين لتفوهه بكلمة أغضبت أبا عثمان زعيم الموالى الأمويين مما جعله يضرب بالكتاب وجه خالد ثم يأمر بالقبض عليه . إذ كان أبو عثمان حاد المزاج سريع الغضب[١٠٣].

لكن ماصدر عن خالد لأبى عثمان لم يكن يستدعى كل هذا - لو صدقت النية - وفى رأيى أن الأمر كان معداً من قبل ولاينقصه إلا التماس أى تبرير للقبض على خالد يؤكد ذلك أنه بعد القبض عليه قال المجتمعون للداخل (هذا أول الفتح هذا سلطان يوسف كله)[١٠٤].

وفى اعتقادى أن السبب يكمن فى أن الداخل قد حظى خطوات موفقه فى سبيل استرداد ملك آبائه بالأندلس فقد ضم إليه موالى الأمويين المتحمسين لدعواه كما نجح فى ضم اليمنية الموتورة من يوسف - فى موقعة شقنده السابقة - والتى تتمنى أن تتاح لها فرصة الثأر منه ومن المضرية المناصرة له وقد كانت استجابة اليمنية لدعوة الداخل سريعة على حد تعبير أبى عثمان وأبى خالد - زعيمى الأموية - فلم نمر بيمنى ذابال إلا عرضنا عليه أمر ابن معاوية ودعوناه إليه إلا سارع بالإجابة فالفينا قوماً قد وغرت صدروهم يتمنون شيئاً يجدون به سبيلاً إلى طلب ثأرهم[١٠٥].

كما كان لحاشية كل من عبد الرحمن الداخل ويوسف الفهرى دور كبير فى إفشال تلك المحاولة السلمية. فحاشية الداخل تتشكك فى صدق نية الصميل مستشار الفهرى ووزيره ويعتقدون أن تلك المحاولة تهدف إلى التمكن منهم وأنهم إذا قبلوا عرض يوسف فسيمنعه الصميل من الوفاء به[١٠٦]. وفى هذا سيكون حتفهم لاسيما بعدما أظهروا الرفض وأغروا الداخل بحبس خالد بن يزيد[١٠٧].

صار واضحاً أن موالى الأمويين واليمنية يسعون جادين إلى حسم الموقف لصالح ابن معاوية وأنهم - على حد تعبيرهم - قد وطنا أنفسنا على الموت ، وعزمنا على أن نقتل دونه [١٠٨] من هنا تحتم اللقاء بين المتصارعين ليحسم الأمر .

موقعة المصارة ١٣٨ هـ وغروب شمس الفهريين :

لما أعد الداخل عدته وعبأ جنده خرج قاصداً قرطبة فوصل قرية بابش على نهرها يوم الاثنين ٦ من ذى الحجة سنة ١٣٨ (٧٥٥م) ولما علم يوسف الفهرى بذلك خرج إلى المصارة للقائه وكان النهر حائلاً بينهما فأقاما ثلاثة أيام متناظرين وتراسلا فى الصلح ، حتى ظن يوسف أن عبد الرحمن راغب فيه، فانشغل عن الاستعداد الحربى بإعداد الطعام فأمر بذبح البقر والإبل وتقديم الأطعمة للجند ابتهاجاً بالصلح الوشيك الوقوع بينما كان عبد الرحمن الداخل آخذاً فى الأهبة والاستعداد للقتال يسهر الليل وهو يشرف على تنظيم الأمور والتخطيط للمعركة الوشيكة.

فجعل على خيل أهل الشام عبد الرحمن بن نعيم الكلبى، وعلى رجالة اليمن بلوهة اللخمى وعلى رجالة بنى أمية والبربر عاصم بن مسلم الثقفى (العريان) وعلى خيل بنى أمية حبيب بن عبد الملك القرشى، وعلى خيل البربر ابراهيم بن شجرة الأودى وأعطى اللواء أبا عثمان [١٠٩] وفي يوم الخميس التاسع من ذى الحجة (يوم عرفه) نقص النهر وتهيأت الفرصة للعبور فدعا الداخل أهل مشورته وعرض عليهم الأمر .

وطلب منهم إن كان عندهم جلد وحب للمكافحة أن يعلموه وإن يكن فيهم جنوح إلى السلم والصلح فليعلموه فاجتمعت كلمتهم على الحرب [١١٠].

فتزاحف القوم واندفعت اليمنية - طلباً بثأرها- واشتد القتال فشد حبيب بن عبد الملك بخيله على خيل ميمنة يوسف والقلب فهزمها ، ثم شد حبيب وابن نعيم بخيل أهل الشام على القلب فقتل من قادة يوسف كنانة بن كنانة وعبد الله بن يوسف الفهرى وجوشن بن الصميل

وتمادت الهزيمة على جيش يوسف ففر ومعه الصميل من المعركة بعد أن راح ضحيتها عدد كبير من أتباعها . وقد حاول يوسف دخول قرطبة والتحصن بها إلا أن عبد الأعلى بن موسجه (أحد قادة الداخل) اعترضه ومنعه من دخولها . فولى يوسف منهزماً إلى سفح جبل قرطبة ثم فر إلى طليطلة حيث لحق به الصميل. ودخل عبد الرحمن بن معاوية قرطبة واستولى على قصرها وأمن الناس وأمر برد مانهب وقمت له بيعة العامة[١١١] فكيف تأتى للداخل - الهارب من العباسيين بالمشرق - أن يصارع أمير الأندلس ويهزمه؟.

مما لاشك فيه أنه كان لشخصية الداخل القوية وعزمه وتصميمه على استرداد ملك آبائه أكبر الأثر فى تحقيق ذلك. وفى سبيل ذلك خطى خطوات هامة منها جمع موالى الأمويين حوله واستثمار الفتنة اليمنية المضريةلصالحة حيث ضم إليه اليمنية الراغبة فى الثأر من يوسف والمضرية. كما ضم إليه بعض زعماء القيسة المنافسين للصميل وزير يوسف كابن شهاب وجابر ابن العلاء وابن هلال العبدرى والحصين بن الدجن[١١٢] ومن خطواته الهامة أيضاً التى تدل علي حسن سياسته ماقدم بها من إيهام يوسف الفهرى بقرب الصلح فانصرف يوسف إلى إعداد الطعام وتفرغ عبد الرحمن لإعداد الكتائب كذلك كان لتدقيق الداخل فى اختيار قادته وعلمه بظروفهم وإمكاناتهم أثر كبير فى تحقيق النصر فقد جعل الحصين بن الرجن العقيلى فى مواجهة ابن عمه الصميل لعلمه بالعداوة والتنافس بينهما[١١٣].

ثم إن الحرب النفسية التى أثارها الداخل قبيل المعركة أدت نتائجها المرجوة فأضعفت عزيمة جند يوسف وشدت أزر جند الداخل فقد أذاع أن يوم المصارة شبيه بيوم مرج راهط - الذى كان بين الأمويين والفهريين فى سنة ٦٤هـ وانتصر فيه الأمويون- فهو يوم عبد ويوم جمعة وأموى وفهرى ولذا قال: أبشروا فإنى لأرجو أنها أخت وقعة مرج راهط[١١٤] وعندما قيلت هذه العبارة فى معسكر يوسف أحدثت دوياً هائلاً فمشى العلاء بن جابر إلى الصميل بن حاتم وقد التقى الجمعان فقال له: (أباجوش: اتق الله فما أشبه هذا اليوم إلا بيوم المرج وإن عار ذلك لباق علينا إلى اليوم وإن الأمور ليهتدى إليها بالأشباه والأمثال: أموى وفهرى ، وقيس واليمن... ويوم عيد فى جمعة

أيضاً، ويوم المرج عيد فى جمعه الأمر علينا ماأشك فيه فاتق الله واغتنم لنا الأمر لنكون فيه أعزاء لاأتباعاً[١١٥] وبمثل هذه العزيمة المنهارة لايتحقق النصر أبداً .

على أن يوسف الفهرى يتحمل جزءاً كبيراً مما أصابه فقراراته المترددة بشأن الداخل مكنت الداخل وأضعفته فلم يصغ إلى مشورة الصميل بمبادرة الداخل قبل أن يستفحل أمره ولو فعل لتغير الموقف تماماً ولكان بيده زمام المبادرة.

كما يؤخذ على يوسف أيضاً عدم احتفاظه بكتم أخباره وقراراته عن خصومه من ذلك أنه لما وصل يوسف رسول من قرطبة وهو بالثغر يخبره بنزول ابن معاوية بساحل المنكب بدا عليه القلق وشاور الصميل ولم يكتم أمره حتى شاع الخبر مما أحدث بين جند يوسف تذمراً وتركوا المعسكر ولم يبق مع يوسف والصميل إلا القليل فلم يسعهما التحرك صوب ابن معاوية[١١٦].

لكل هذه الأسباب انتصر الداخل وهزم يوسف الفهرى وفر ليستعد لجولات أخرى .

استمرار الصراع الفهري الأموي بالأندلس :

لم تضع موقعة المصارة نهاية للصراع الفهري الأموي ذلك أن يوسف الفهري ووزيره الصميل مازالا على قيد الحياة ولم يلقوا بأيديهم لعبد الرحمن بعد ولم يعلنوا الاستسلام له .

وكان يوسف حين سار للقاء ابن معاوية قد طلب من ابنه عبد الرحمن (واليه على سرقسطة) أن يلحقه بخيل الثغر في خمسمائة فارس ، فحدث أن لقيه يوم الهزيمة بالقرب من قرطبة متجهاً إلى طليطلة لاستنفار واليها من قبله هشام بن عروة الفهري فانضم عبد الرحمن بن يوسف بمن معه مِنَ الفرسان إلى أبيه وتوجهوا جميعاً صوب طليطلة وأخذ يوسف يحشد أهلها ، ويستعد لدخول معركة أخرى ضد ابن معاوية[١١٧].

أما الصميل بن حاتم فكان قد هرب هو أيضاً وأخذ بدوره يجمع أنصاره من المضريين ثم مالبثوا أن انضموا إلى يوسف وجموعه في طليطلة فقوى بذلك شأنهم وأضحوا قوة تشكل خطراً كبيراً على سلطان عبد الرحمن بن معاوية. وتحرك يوسف والصميل بجموعهما إلى جيان فحشدا فيها من رغب في الانضمام إليهما ثم توجها إلى البيرة فلما سمع واليها من قبل الداخل جابر بن العلاء بن شهاب بقدومهم فرّ عنها وانحاز إلى بعض جبالها واجتمع على أثر ذلك أهل البيرة وخاصة القيسية حول يوسف وأصبح الجميع مستعدون للسير نحو قرطبة[١١٨].

ولما بلغ عبد الرحمن الداخل نبأ نزول يوسف ومن معه بالبيرة وفرار واليه عنها حشد الأجناد ثم تحرك نحوهم بعد أن خلف أبا عثمان ومعه حامية على قرطبة للمحافظة على العاصمة. وعلم يوسف الفهري بتوجه الداخل نحوه أمر ابنه أبا زيد عبد الرحمن بالتوجه صوب قرطبة للاستيلاء عليها - بعد أن غادرها الداخل - فأغار عليها ابن يوسف وحصر نائب الداخل عليها أبا عثمان في صومعة المسجد الجامع الموجود بالقصر فاستسلم له أبو عثمان فأنزله وكبله وانطلق به.

ومضى يتابع طريقه ويجر أبا عثمان حتى وصل إلى أبيه بالبيرة[١١٩] وكان الداخل قد زحف إلى يوسف والصميل حتى بلغ احدى قرى البيرة يقال لها (أرملة) بينما لاذ يوسف والصميل

ومن معهما بغرناطة وتحصنوا بها وحاصرهم الداخل بها ولما تمادى الحصار تراسلا فى أمر الصلح فعقده لهما الداخل فى صفر سنة ١٣٩ هـ على شروط منها .

- أن يتخلى يوسف له عن الأمر .
- أن يؤمن يوسف على أمواله حيث كانت وأن يؤمن كذلك جميع أصحابه .
- أن يسمح ليوسف والصميل بسكنى قرطبة على أن يتردد يوسف كل يوم على الداخل حتى يتأكد من أنه لم يخلع الطاعة .
- أن يودع يوسف لدى الداخل ولديه عبد الرحمن أبا زيد ومحمداً أبا الأسود رهينة ريثما تهدأ الأمور فيفرج عنهما (١٢٠).
- كذلك اشترط الداخل أن يكون تنازل يوسف بحضور القاضى يحيى بن يزيد فحضر وكتب فى كتاب المقاضاة وذلك بحضور يحيى بن يزيد قاضى الجماعة (١٢١) ثم عاد الجميع إلى قرطبة يوسف عن يمين الداخل والصميل عن يساره ونزل الداخل القصر ونزل يوسف بمنزله (بلاط الحر) لأنه كان قبله للحر بن عبد الرحمن الثقفى وتوجه الصميل إلى منزله بقرطبة أيضاً .
- وترتب على هذا الصلح أن أطلق الداخل سراح خالد بن يزيد كاتب يوسف كما أطلق يوسف سراح أبى عثمان نائب الداخل على قرطبة . وأقام يوسف والصميل على أحسن حال يختلفان إلى ابن معاوية ويحضرهما الرأى مرة بعد مرة (١٢٢) وكان هذا الصلح جديراً بتحقيق الاستقرار لولا الوشاية والسعى بالفساد فقد غص البعض بالمكانة الجديدة التى حظى بها يوسف والصميل كليهما لاسيما خصومهم من اليمنية فأوعزوا إلى بعض الناس بادعاء حقوق لهم فى أملاك يوسف الفهرى وطالبوا بإعادتها إليهم زاعمين أنه اغتصبها منهم أثناء ولايته: مستغلين الجفوة والتباغض بين يوسف الفهرى والصميل والقاضى يحيى بن يزيد لما كان من قتلهما اليمنية يوم شقنده. ولم يكن بإمكان يوسف عزله لأن مستقضى من قبل الخلافة بالمشرق . ورجوا أن يحيف لهم القاضى. لكن القاضى النزيه لم يحابى أحداً بعد أن رأى عجز أصحاب الدعوات بعد الآجال التى ضربها لهم (١٢٣).

ويبدو أن يوسف لم يتحمل إجراءات المحاكمة التى وجدها طويلة وثقيلة على نفسه وهو الذى تعود أن يأمر لا أن يؤمر. وقد دفعه ذلك إلى توجيه بعض النقد الذى حمله عند أعدائه إلى ابن معاوية آملين فى إبغار صدره عليه وأصبح يوسف يشعر خلال إقامته بالمزيد من التوجس والتخوف والوحشة[١٢٤].

وفى المقابل لذلك كانت هناك فى قرطبة بيوتات من موالى بنى هاشم وبنى فهر وقبائل قريش وغيرهم ممن نالوا مع يوسف رفعه ومناصب هامة زالت عنهم فكانوا يترددون على يوسف ويحرضونه على خلع الطاعة ويندمونه على ماكان ويدعونه لاسترداد سلطانه .

ومازالوا به حتى كاتب الناس ونكث بالعهد وهرب إلى ماردة سنة ١٤١ هـ حيث كان يقيم جل عياله وأصهاره وعدد كبير من أنصاره[١٢٤] ولما علم عبد الرحمن الداخل بنبأ فراره أمر بالقبض على الصميل وعلى ولدى يوسف (عبد الرحمن ومحمد) وألح على الصميل ليتعرف منه الجهة التى قصدها يوسف واشتد فى ذلك مما أغضب الصميل فقال له: (لو أنه تحت قدمى هذه مارفعته لك عنه، فاصنع ماشئت) فأمر الداخل حينذاك بحبسه وحبس ولدى يوسف معه[١٢٦].

أما يوسف الفهرى فقد اجتمع إليه أهل ماردة عربها وبربرها، ثم سار إلى لقنت فلم يستجب أهلها إلى دعوته فاتجه إلى أشبيلية فانضم إليه كثير من أهلها فتضخم جيشه حتى بلغ حوالى عشرين ألفاً فى ذلك الوقت كان عبد الرحمن الداخل يجمع جيوشه ويحاول إتمام استعداداته بقرطبة .

وكانت خطة يوسف أن يبدأ بمهاجمة عبد الملك بن مروان بن الحكم المعروف بالمروانى والى أشبيلة من قبل الداخل حتى يؤمن ظهر جيشه قبل اللقاء المرتقب مع الداخل.

فرض يوسف الحصار على أشبيلية، فأسرع عبد الملك إلى طلب النجدة من ابنه عبد الله بن عبد الملك فى مورود وكان والياً عليها للداخل .

غير أن يوسف استهان بقوة المروانى لقلتها فتركها خلفه واتجه صوب القوة الكبرى التى مع الداخل على أمل القضاء عليها فيصبح من السهل القضاء على قوة المروانى والقوى الصغرى

الأخرى. وكان الداخل قد بلغ مكاناً يعرف ببرج أسامة فأقبل يوسف إليه لايعبأ بمن خلفه. لكن المروانى وابنه كانا قد حشدا حشداً كبيراً وأسرعا خلف جيش يوسف فى نفس الوقت تقدم الداخل بمن معه نحو المدور وعلم رجال يوسف بالحظر القادم من خلف فنبهوه إليه فاستدار يوسف بجيشه نحو المروانى خشية أن يصل جيش الداخل فى نفس الوقت فينحصر بين عدوين .

وبدأ اللقاء بالمبارزة بين أحد موالى فهر وأحد موالى المروانى انتهى لصالح المروانى فكبر أتباع المروانى وحملوا حملة صادقة انهزم على أثرها يوسف وتفرق جيشه ومضى يوسف إلى فريش ثم إلى فحص البلوط ومنها اتجه إلى طليطلة ليكون فى حماية واليها هشام بن عروة الفهرى، فبينما هو متجه إليها وعلى مسافة عشرة أميال منها مر بعبد الله بن عمر الأنصارى بإحدى قرى طليطلة فقيل له : هذا يوسف منهزماً فقال لأصحابه ويحكم أخرجوا بنا نقتله ونريح الدنيا منه وتريحه من الدنيا وتريح الناس من شره فقد صار رجلاً ناجشا للحرب[١٢٧] وخرج على أثره حتى لحقه بالقرب من طليطلة فقتله سنة ١٤٢ هـ وقتل مولاه وفر وصيفه حتى دخل طليطلة .

توجه عبد الله بن عمر الأنصارى إلى قرطبة حملاً رأس يوسف الفهرى فلما بلغ الداخل هذا النبأ أمر بضرب عنق عبد الرحمن بن يوسف المكنى بأبى زيد ورفع الرأسين كل منهما على قناة فوق جسر قرطبة ثم أدخل على الصميل فى الحبس من خنقه فأصبح فى الحبس ميتاً وأخرج إلى داره ودفنه أهله وانقضى أمره[١٢٨].

فهل يلام يوسف الفهرى على نكثه ونقضه الأيمان بعد توكيدها ؟

يذكر ابن عذارى أنه اختلف فى أمر يوسف فقال بعضهم أنه لم ينكث بغياً وإنما خوفاً[١٢٩] ومعنى هذا إعفاء يوسف من إثم نكث العهد. لكن فى نظرى أنه لايعفى من المسئولية إعفاءاً كاملاً ويقع جزء كبير منها على كاهل أصحاب المصالح من الموالين للداخل ومن الموالين ليوسف الذين سعوا بالفساد بين الطرفين فكان فى سعيهم اضطراب الأمن وحتف كثير من الناس ممن شاركوا فى الفتنة بل حتف يوسف وابنه عبد الرحمن مما كان سبباً فى اشتداد الصراع بين الأمويين والفهريين بالأندلس .

اشتداد المقاومة الفهرية بعد يوسف :

ثورة ابن عروة الفهرى سنة ١٤٤ بطليطلة:

بعد قتل يوسف الفهرى فى سنة ١٤٢ هـ لم يلق الفهريون بأيديهم ولم يخضعوا للداخل بل اشتدت مقاومتهم له طلباً بثأر يوسف وميراثه فى الإمارة .

وقد اتخذت مقاومتهم عدة أشكال منها ماقام به الفهريون أنفسهم ومنها مساعدة الثائرين على الداخل ، ومنها مااستمدوا فيه شرعية بنى العباس نكاية فى الأمويين، ومعنى هذا أنهم كانوا مع كل سيف يسل على الأمويين بالأندلس .

وكانت أولى محاولاتهم - بعد مقتل يوسف - ماقام به هشام بن عروة الفهرى والى طليطلة من الثورة على الداخل سنة ١٤٤ هـ وقد نجح فى ضم حيوة بن الوليد التجيبى والعمرى من ولد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأعلن الاستقلال بطليطلة وتحصن بها. فخرج إليه الداخل وحاصره بطليطلة وشدد عليه الحصار وناشبه القتال فلما عضته الحرب وناله الحصار طلب من الداخل الصلح فقبل شريطه أن يعطيه ابنه رهينة فوافق وأعطاه للداخل فأمر بفك الحصار (١٣٠).

لكن ابن عروة نقض الصلح بعد انصراف الداخل إلى قرطبة غير عابئ بأمر ولده لدى الداخل.

إزاء ذلك غزاه الداخل فى السنة التالية سنة ١٤٥ هـ .

ودعاه إلى الرجوع إلى الطاعة فأبى فحاصره وقاتله فتصدي له ابن عروة وأظهر بأساً وصبراً قوياً فلما يأس الداخل منه أمر بضرب عنق ابنه الرهينة فضربت ثم جعل الرأس فى المنجنيق ورمى بها إليه فسقطت فى المدينة لكنها لم تفت فى عضد ابن عروة الذى واصل المقاومة مما اضطر الداخل إلى رفع الحصار عن طليطلة والرجوع إلى قرطبة ذلك العام (١٣١).

ثم شغل الأمير عبد الرحمن الداخل فى العام التالى سنة ١٤٦ هـ بثورة العلاء بن مغيث بباجة وكان قد دعا لأبى جعفر المنصور وبعث له المنصور بلواء أسود.

لم يتخلف الفهريون عن مناصرة العلاء بن مغيث الثائر على الداخل إذ كان من أكبر مساعديه أمية بن قطن الفهرى مما أحنق اليمنية فساروا إلى أشبيلة وقبضوا على أمية وكبلوه وظل كذلك حتى انتصر الداخل على العلاء فألقاه مكبلاً فمن عليه الأمير عبد الرحمن وأطلق سراحه وانتقم من أعدائه وقطع رؤوسهم وبعث بها إلى القيروات وانتشر الخبر حتى بلغ أبا جعفر فحذر الداخل (١٣٢). بعد ذلك كرس الداخل جهده للقضاء على ثورة ابن عروه الفهرى السابقة بطليطلة فكشف البعوث وتخير لذلك أعظم قادته فكلف مولاه بدرا وتمام بن علقمة ومعهما جيش كبير بحاصرة طليطلة والتضييق على هشام بن عروة. ثم أمر الداخل بمطاولة الحصار وتبادله بين الأجناد حتى لاتسأم فرقة الحصار - وجعله بينها دولاً فى كل ستة أشهر - فإذا انقضت دولة ندب أخرى حتى ملّ أهل طليطلة الحصار واستثقلوا الحرب وجرت اتصالات بينهم وبين تمام وبدر طلبوا فيها الأمان على أنفسهم وأهليهم وأموالهم فأمنوهم على أن يسلموا هشاماً والعمرى وحيوه فأسلموهم وبروا لهم بما وعدوهم ثم أرسلوا إلى قرطبة فأمر الداخل بقتلهم وصلبهم (١٣٣).

وبهذا تمكن الداخل من وضع نهاية لثورة طليطلة بقيادة ابن عروة الفهرى بعد طول عناء ومقاومة دلت على قوة شكيمة الفهريين وصبرهم وجلدهم .

ثورة عبد الرحمن بن حبيب الفهرى : (المعروف بالصقلبى) سنة ١٦٣ هـ.

اتصل عبد الرحمن بن حبيب (الصقلبى) وسمى بذلك لأنه كان طويلاً أشقر أزرق العينين كالصقالية) بالعباسيين لينال دعمهم فى ثورته ضد الأمويين بالأندلس. وكان قد غادر أفريقية قاصداً الأندلس حيث نزل بساحل (تدمير) قبل إعلان ثورته بحوالى سنتين فأظهر الدعوة العباسية ودعا الناس إليها واجتمع إليه عدد منهم لم تحدده المصادر وإن كانت تذكر أن معظمهم من البربر (١٣٤).

وكاتب الصقلبي والى برشلونه سليمان بن يقظان ودعاه إلى أمره فلم يجبه (١٣٥) فغضب الصقلبى من ابن يقظان وجميع أعوانه وسار قاصداً برشلونه وخرج ابن يقظان للقائه والتقى الجمعان ودارت الدائرة على الصقلبى فكر راجعاً إلى تدمير (١٣٦).

لم يمهل الداخل خصمه الصقلبى فبعد هزيمته السابقة من ابن يقظان أسرع لمهاجمته فهرب الصقلبى إلى جيل بلنسية واعتصم به.

أما الداخل فقد اجتاح منطقة تدمير ثم تقدم إلى كورة بلنسية بعد أن أحرق السفن التى كانت مرابطة أمام الشاطئ والتى كان يمكن أن يلجأ إليها الصقلبى (١٣٧).

ولما لم تجد هذه المحاولة لجأ الداخل إلى بذل الأموال (١٣٨) لمن يقدم على اغتيال الصقلبى وقد تمكن من ذلك على يد أحد أصحاب الصقلبى من البربر ويدعى مشكاراً فقتله فى عام ١٦٣ (١٣٩) وحمل رأسه إلى الأمير عبد الرحمن الداخل الذى مالبث أن عاد إلى قرطبة بعد أن أخمد هذه الثورة الفهرية التى أقضت مضجعه وأقلقت باله .

ظل الصراع محتدماً بين الداخل وبين الفهريين فما يكاد يخمد الداخل ثورة لهم حتى تشب أخرى ذلك أنه ماكاد الداخل يقضى على ثورة عبد الرحمن بن حبيب الفهرى (الصقلبى) سنة ١٦٣ حتى أتاه خطر فهرى لم يكن يتوقعه فقد كان صاحبه محمد بن يوسف الفهرى (الملقب بأبى الأسود) الذى كان مسجوناً بسجن الداخل فادعى العمى فترة من الزمن وصار يتصرف تصرف العميان حتى جازت حيلته واعتقد سجانه بعماه فخفف قيوده وترك مراقبته وكان الموكل برافقته عند ذهابه لقضاء حاجته أو للوضوء يتركه وزيادة من أبى الأسود فى حبكة الدور كان يبقى حائراً ينادى من يقود الأعمى إلى محسبه؟) فيرد (١٤٠).

وكان السجناء يومئذ ينزلون إلى نهر الوادى الكبير القريب منهم للطهور والوضوء فيسلكون سرداباً خصص لهم تحت الأرض بملاصقة القصر . بينما يقوم الرقباء بملاحظتهم . فأهمل ارتقاب أبى الأسود هذا، عندما وجد السبيل للأمان منه من أجل عماه. فتحايل مع بعض مواليه فى قرطبة وانتهز فرصة أجاز فيها الوادى سبحاً، وامتطى بعد خروجه خيلاً كان قد أعدها ثقات أضحابه. فركب معهم وفروا بسرعة إلى طليطلة .

وهناك أخذ أبو الأسود يدعو لنفسه والقيام على عبد الرحمن الداخل واستمال كثيراً من الناس بوضعه وجمع جيشاً جراراً اتجه به صوب قرطبة .

ولما علم عبد الرحمن الداخل بذلك حشد جيشه وخرج للقاء أبى الأسود وجيشه فوجده حل باحواز جبان فاقتتل الطرفان مرة بعد مرة كان أبو الأسود يخرج بعد كل لقاء وقد اشتدت شكيمته، ونقص عدد جند خصمه فقتل لعبد الرحمن جمع كبير، إلى أن حدثت المعركة الفاصلة قرب قسطلونه يوم الإربعاء مستهل ربيع الأول سنة ١٦٩ هـ بالقرب من مخاضة الفتح وبعد مواقع عدة وحروب شديدة مكر عبد الرحمن فيها بأبى الأسود فراسل صاحب ميمنته واتفق معه على خيانة صاحبه وواطأه على جر الهزيمة من جهته فقبل ونفذ الاتفاق وانهزم أبو الأسود وقتل عدد كبير من رجاله فلم تقم له بعد قائمه. وذكر أن قتلى يوم قسطلونه :

وموقف مثل حد السيف قمت به أحمى الذمار وترمينى به الحدق

ويذكر الرازى أن عدد من قتل فى هذه الموقعة وحدها ممن كان مع أبى الأسود حوالى أربعة الاف سوى من غرق فى النهر أو وقع فى المهاوى، أو تلف فى الشعاب [١٤١].

أما أبو الأسود نفسه فقد هرب إلى قسطلونه على وادى الأحمر، ومضى على وجهه إلى ناحية الغرب حتى بلغ مدينة قورية. وتمادى فى شروده وخلافه إلى أن هلك فى سنة ١٧٠هـ. وهى السنة التى شهدت آخر غزوات الأمير عبد الرحمن الداخل على أبى الأسود وقصد بها الأمير مدينة قورية المتحصن فيها أبو الأسود، فلما أحس به أبو الأسود فر عن قورية وأدركت خيل الأمير عياله وأصحابه فقتل من أدرك وأحرقت دوره ، وانقطع محمد بن يوسف وحده ولجأ إلى غياض كثيفة حزيناً حتى مات كمداً فى بلده ركانة القريبة من طليطلة [١٤٢] .

ويبدو من خلال تتبع ثورة أبى الأسود أنها كانت عنيفة حدثت بها مواقع كثيرة بين الطرفين، وأن الأمير عبد الرحمن بذل فى سبيل القضاء عليها كثيراً من الأنفس والأموال ولذا اشتد حنقه على كل من ساعد أبا الأسود لاسيما قبيلة نفزة البربرية فاوقع بها وأذلها وأذهب عادتهم [١٤٣].

بيد أن هذه الثورة لم تكن آخر الثورات الفهرية على الداخل فبعد وفاة أبى الأسود (محمد ابن يوسف الفهرى) سنة ١٧٠ هـ هبت أخوه قاسم بن يوسف على الأمير عبد الرحمن وخلع الطاعة وأعلن العصيان سنة ١٧١ هـ فغزاه الداخل ووالى عليه الجيوش حتى أذعن له بالطاعة وكان قاسم آخر الفهريين المخالفين على الأمير عبد الرحمن [١٤٤] ولم يطل العمر بالداخل بعد ذلك فقد مات فى الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ بعد أن قضى جل عمره فى مقاومة المخالفين عليه لاسيما الفهريين .

من خلال العرض السابق ينضج دور الفهريين السياسى بالأندلس منذ الفتح الإسلامى لتلك البلاد واستئثار الفهريين بحكم البلاد فى فترات عدة وبروز شخصيات فهرية مؤثرة على المسرح السياسى للبلاد من أمثال حبيب بن أبى عبيدة الفهرى وعبد الملك ابن قطن ويوسف بن

عبد الرحمن الفهريان وغيرهم كما يتضح الأثر السئ للعصبية القبلية (القيسية واليمنية) بالأندلس والتى فرقت أهله وأنشبت الحرب بينهم وإن كان دوزى قد بالغ فى تصويرهما فى كتابه المعروف بـ (تاريخ مسلمى أسبانيا) حيث جعل العرب المستقرين بالأندلس عصابات لاهم لها إلا الاقتتال فيما بين بعضها وبعض (١٤٥).

وقد نقض آراء دوزى فلهما وزن ولم يقره على مبالغة السابقة فى تصوير ماكان بين العدنانية والقحطانية (١٤٦).

كما تتضح حقيقة العلاقة الفهرية الأموية بالأندلس والتى تأرجحت بين الوئام والخصام وأن تدخل أصحاب المصالح والمغرضين بين الطرفين أفسد العلاقة حتى امشتق الحسام وسالت الدماء غزيرة من الطرفين .

كما يتبين أيضاً حقيقة المقاومة الفهرية للأمويين بالأندلس بأشكالها المختلفة وأنها كانت من الشدة بحيث تغصت على الداخل حياته فلم يكد ينتهى من ثورة فهرية حتى تشب أخرى، وإن كثرة هذه الثورات وتواليها وماصاحب ذلك من كثرة القتلى لخير دليل على أن الكثيرين من أهل الأندلس كانوا يوالون الفهريين ويضحون بأرواحهم من أجل سلطانهم إذ كانوا هم الذين قد ولوهم أمرهم . ولولا عزيمة الداخل وتأييد موالى الأمويين واستغلال الفتنة القيسية اليمنية وبذل الأموال لبعض من كان فى صفوف الفهريين لخيانتهم لما تمكن الداخل من زحزحة الفهريين من فوق كرسى إمارة الأندلس . ولكن الأيام دول وصدق الله العظيم إذ يقول «وتلك الأيام نداولها بين الناس» (١٤٧).

الهوامش

(١) ابن حزم - جمهرة أنساب العرب - ص١٨٧ - ١٨٨، ابن القوطية - تاريخ افتتاح الأندلس ص٢٩ .

(٢) البلاذرى - أنساب الأشراف - ص٤٠ .

(٣) البكرى - المغرب - فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب - ص١٣٥ .

(٤) ابن عذارى - البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب - حـ١ ص٥٥ .

(٥) مجهول المؤلف - أخبار مجموعة ص٣٢ ، ابن القوطية - المصدر السابق ص١٥ .

(٦) المقرى - نفح الطيب - حـ٤ ص١٧، ابن عذارى حـ٢ ص٢٧، ابن خلدون حـ٦ ص١١٨ الذى يجعل أمر تقليد يحيى بن سلمة من قبل والى المغرب حنظلة بن صفوان بيد أن حنظلة لم يل أمر المغرب إلا فى سنة ١٢٤ .

(٧) ابن عبد الحكم - فتوح مصر والمغرب - ص٢٩٢ .

(٨) ابن عذارى حـ٢ صـ٣٠ ، ابن خلدون حـ٤، ص١١٩ .

(٩) ابن القوطية - المصدر السابق صـ٤٤، أخبار مجموعة صـ٥٧ .

(١٠) المقرى - نفح الطيب - حـ٤ صـ١٠، وغل : أخذ شيئاً لنفسه خفية قبل أن تقسم الغنائم أى خان قال لنمر :

جزى الله عنا حمزة بن نوفل جزاء مغل بالأمانة كاذب .

(ابن منظور - لسان العرب حـ٥ص٣٢٨٥).

(١١) المقرى - المصدر السابق والصفحة .

(١٢) الطبرى - حـ٦ صـ٤٨١ ، الحميدى - جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس صـ٣، ٤، عبد الواحد المراكشى - المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، ص١٨، ابن خلدون حـ٤ صـ١١٧ وقد انفرد ابن خلدون بذكر اسم المصاحب لموسى بن نصير وهو حسين بن أبى عبد الله المهدى الفهرى .

(١٣) ابن خلدون حـ٤ صـ١١٨ .

(١٤) ابن قتيبة - الإمامة والسياسة حـ٢ صـ٩٦ - ٩٧ ، الحميدى - المصدر السابق ، - صـ٤، المراكشى - المصدر السابق - صـ١٩ .

(١٥) مجهول المؤلف - أخبار مجموعة - صـ٢٠ ، ابن عبد الحكم - المصدر السابق - صـ٢٨٥- ٢٨٦ وتضيف رواية ابن عبد الحكم أن زوجة عبد العزيز حملته على أن يأخذ أصحابه بالسجود له إذا دخلوا عليه كما كان يفعل لزوجها السابق لوذريق فأمر بفتح باب قصير لمجلسه فكان أحدهم إذا دخل طأطأ رأسه فيصير كالراكع فرضيت به وصار كالسجود عندها. (ونفس الرواية يذكرها ابن الأثير - الكامل - حـ٤ صـ٣٠٠).

(١٦) ابن قتيبة - الإمامة والسياسة - حـ٢ صـ٩٥، ٩٦ .

(١٧) ابن قتيبة - المصدر السابق - صـ٩٧ .

(١٨) مجهول المؤلف أخبار مجموعة صـ٢٢ .

(١٩) أخبار مجموعة صـ٣٠ .

(٢٠) ابن عذارى حـ١ صـ٥٥ .

(٢١) ابن عذارى حـ٢ صـ٢٨، المقرى - المصدر السابق - حـ٤ صـ١٨ د/ حسين مؤنس - فجر الأندلس صـ١٩٣ ودوزى - تاريخ مسلمى أسبانيا حـ١ صـ١٥٥ ويذكر دوزى أن عبد الملك كان متهماً بالجور الشديد بشهادة العرب والمسيحين على السواء ولو كان الأمر كما ذكر لما تمكن بمساعدة الأندلسيين أن يسترد امارته سنة ١٢٣ كما ذكر هو نفسه فى آخر الصفحة السابقه .

(٢٢) المقرى المقرى - المصدر السابق حـ١ صـ٢٢٥ وحـ٤ صـ١٨ .

(٢٣) ابن عذارى حـ٢ صـ٢٩ .

(٢٤) نفح الطيب حـ١ صـ٢٢٥، حـ٤ صـ١٨ .

(٢٥) د. حسين مؤنس . فجر الأندلس صـ١٩٤ عن رواية لايزيدور الباجى .

(٢٦) ابن عذارى حـ٢ صـ٢٩ .

(٢٧) ابن عذارى حـ٢ صـ٢٩ أيضاً .

(٢٨) المصدر السابق صـ٣٠ .

(٢٩) ابن عذارى حـ١ صـ٥٩ وابن القوطية- تاريخ افتتاح الأندلس صـ٨٢ حيث يذكر (أن أهل رأبة (عبد الملك) قالوا له: إن دخل عليك هذا الشامى عزلك) .

(٣٠) أخبار مجموعة ص٣١، ابن عذارى المصدر السابق ص٤٢ .

(٣١) المقرى - المصدر السابق حـ٤ ص١٩ دوزى - تاريخ مسلمى أسبانيا - حـ١ صـ١٥٨ .

(٣٢) أخبار مجموعة صـ٣٩ ، ابن عذارى حـ٢ ص٤٣ .

(٣٣) ابن عذارى نفس المصدر والصفحة .

(٣٤) أخبار مجموعة صـ٤٠ .

(٣٥) المصدر السابق والصفحة .

(٣٦) د. حسين مؤنس - فجر الأندلس - صـ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٣٧) أخبار مجموعة صـ٦١ - ٦٢ .

(٣٨) د. حسين مؤنس - المرجع السابق - صـ٢٠٦ DO ZG , Recherches 1-PP. 11 SPP

(٣٩) ابن عذارى حـ٢ صـ٣١ .

(٤٠) أخبار مجموعة صـ٤٠ - ٤١ .

(٤١) ابن عذارى حـ٢ صـ٣١ .

(٤٢) دوزى - بالمرجع السابق صـ١٦٠ .

(٤٣) أخبار مجموعة نفس الصفحة .

(٤٤) أخبار مجموعة نفس الصفحة .

(٤٥) أخبار مجموعة صـ٤٢، ابن عذارى حـ٢ صـ٣٢، المقرى - نفح اطيب حـ٤ صـ٢٠ .

(٤٦) فهمى عبد الجليل - النزعة القبلية - مظهرها وتأثيرها فى التاريخ الإسلامى حتى نهاية القرن الثانى الهجرى صـ٤١٨ .

(٤٧) ابن عبد الحكم - فتوح مصر والمغرب . صـ٢٩٧.

(٤٨) أخبار مجموعة صـ٤٣ .

(٤٩) ابن القوطية - تاريخ افتتاح الأندلس - صـ٨٢ .

(٥٠) ابن القوطية المصدر السابق - صـ٨٢ أيضاً، أخبار مجموعة صـ٤٣ - ٤٤ ويجعل صاحب الأخبار المجموعة سبب وفاة بلج تأثره بضربتى سيف ضربهما له ابن علقمة .

(٥١) ابن عذارى حـ٢ صـ٣٢ ويجعل المقرى مدة حكمه أحد عشر شهراً (نفح الطيب حـ٤ صـ٢١).

(٥٢) أخبار مجموعة صـ٤٥ - ٤٦ .

(٥٣) فهمى عبد الجليل - المرجع السابق - صـ٤١٩ .

(٥٤) ابن القوطية صـ٨٤ ، ابن الأبار - الحلة السيراء حـ١ صـ٦١ - ٦٢ ، ابن عذارى حـ٢ صـ٢٣، ابن خلدون حـ٤ صـ١١٩ - ١٢٠ ، المقرى حـ١ صـ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٥٥) ابن القوطية صـ٨٤ أيضاً . ابن الأبار - المصدر السابق - صـ٦٤، ابن خلدون حـ٤ صـ١٢٠ ، المقرى حـ٤ صـ٢٣ .

(٥٦) أخبار مجموعة صـ٥٦ ، ابن عذارى، حـ٢ صـ٣٤، ابن خلدون حـ٤ صـ١٢٠، المغرب حـ٤ صـ٢٣ .

(٥٧) د. حسين مؤنس - فجر الأندلس - صـ٢٢٣ .

(٥٨) أخبار مجموعة صـ٥٠٧ ، ابن عذارى حـ٢ صـ٣٤ .

(٥٩) المصدرين السابقين نفس الصحفتين .

(٦٠) المقرى حـ٤ صـ٢٣، ٢٤ .

(٦١) ابن عذارى حـ٢ صـ٣٥ .

(٦٢) أخبار مجموعة صـ٥٨، المقرى حـ٤ صـ٣٤ الذى يذكر اسم الرجل الذى خلص أبا الخطار (عبد الرحمن بن حسان الكلبى) .

(٦٣) المقرى . حـ٤ صـ٢٣ .

(٦٤) لم تحدد المصادر بالدقة مدة ولاية ثوابة ولاتاريخ الوفاة فبعضها يجعل الوفاة سنة ١٢٨ هـ (ابن عذارى حـ٢ صـ٣٥) وبعضها يجعلها سنة ١٢٩ هـ (أخبار مجموعة ص٥٧) ، المقرى حـ١ صـ٢٢٧) أما ابن خلدون فى حـ٤ صـ١٢٠ فيحدد تاريخ الولاية سنة ١٢٨ ثم يذكر أنه توفى لسنتين من ولايته (أى سنة ١٣٠ هـ) أما صاحب الإمامة والسياسة حـ٢ صـ١٠٢ فيجعل مدة الولاية سنة وشهراً دون تحديد لبدايتها أو نهايتها .

(٦٥) ابن عذارى حـ٢ صـ٣٥، ابن خلدون حـ٤ صـ١٢٠ ، المقرى، حـ٤ صـ٢٥ .

(٦٦) أخبار مجموعة صـ٥٨ ابن خلدون حـ٤ صـ١٢٠ .

(٦٧) أخبار مجموعة صـ٥٨ أيضاً .

(٦٨) المصدر السابق صـ٥٨ - ٥٩ .

(٦٩) ابن خلدون حـ٤ صـ١٢٠، المقرى حـ١، صـ٢٢٧ .

(٧٠) ابن عذارى حـ٢ صـ٣٥ .

(٧١) د/ حسين مؤنس - فجر الأندلس - صـ٢٢٨ .

(٧٢) أخبار ابن عذارى حـ صـ٣٦ .

(٧٣) ابن عذارى حـ٢ صـ٣٦ .

(٧٤) أخبار مجموعة صـ٦٩ .

(٧٥) د/ حسين مؤنس - المرجع السابق صـ٢٣٠ .

(٧٦) أخبار مجموعة ٥٩ .

(٧٧) ابن عذارى - البيان المغرب حـ٢ صـ٣٦ .

(٧٨) أخبار مجموعة صـ٦٠ .

(٧٩) أخبار مجموعة صـ٦١ .

(٨٠) ابن عذارى حـ٢ صـ٣٧، ابن الأثير حـ٥ صـ١٢٢ .

(٨١) ابن عذارى المصدر السابق والصفحة .

(٨٢) أخبار مجموعة صـ٦٤ .

(٨٣) المصدر السابق صـ٦٢ .

(٨٤) ابن عذارى حـ٢ صـ٤١ - ٤٢، خالد الصوفى - تاريخ العرب فى الأندلس حـ١ صـ٢٩٢ .

(٨٥) أخبار مجموعة صـ٦٨ .

(٨٦) ابن عذارى حـ٢ صـ٣٧ .

(٨٧) أخبار مجموعة صـ٧٢ .

(٨٨) أخبار مجموعة صـ٧٧ .

(٨٩) ابن عذارى حـ٢ صـ٣٨ .

(٩٠) أخبار مجموعة صـ٧٦ .

(٩١) ابن خلدون حـ٤ صـ١٢١ .

(٩٢) ابن عذارى حـ٢ صـ٣٨، المقرى حـ٤ صـ٢٦ .

(٩٣) ابن عذارى نفس الجزء والصفحة ، والمقرى حـ٤ صـ٢٧ .

(٩٤) ابن القوطية - المصدر السابق صـ٨١ .

(٩٥) أخبار مجموعة صـ٦٤، ابن عذارى حـ٢ صـ٣٨ ابن الآبار - الحلة السبراء حـ٢ صـ٣٤٥.

(٩٦) أخبار مجموعة صـ٧٠ .

(٩٧) المصدر السابق صـ٦٦ .

(٩٨) المصدر السابق صـ٦٤ - ٦٥ - ٦٩ .

(٩٩) المقرى حـ٤ صـ٤٢ .

(١٠٠) أخبار مجموعة صـ٧٩ .

(١٠١) أخبار مجموعة صـ٧٩ - ٨٠، ابن عذارى حـ٢ صـ٤٥ - ٦ وقد ذكر ابن عذارى فقرات من كتاب يوسف إلى الداخل .

(١٠٢) ابن خلدون حـ٤ صـ١٢١ .

(١٠٣) أخبار مجموعة صـ٨١ دوزى - المرجع السابق - صـ٢٠٤ .

(١٠٤) المصدر السابق نفس الصفحة .

(١٠٥) أخبار مجموعة صـ٧٤، ابن عذارى حـ٢ صـ٢٤ .

(١٠٦) ابن خلدون حـ٤ صـ١٢١، ابن عذارى حـ٢ صـ٤٦ .

(١٠٧) ابن عذارى نفس الجزء والصفحة .

(١٠٨) ابن عذارى حـ٢ صـ٦ .

(١٠٩) أخبار مجموعة صـ٨٧ .

(١١٠) المصدر السابق والصفحة .

(١١١) ابن عذارى حـ٢ صـ٤٧ .

(١١٢) أخبار مجموعة صـ٨٢ .

(١١٣) ابن الآبار - الحلة السيراء حـ٢ صـ٣٥٥ .

(١١٤) ابن القوطية صـ٨٨، ابن الابار - المصدر السابق - صـ٣٨ .

(١١٥) ابن عذارى حـ٢ صـ٤٧، المقرى حـ٤ صـ٥٣ .

(١١٦) أخبار مجموعة صـ٧٨ - ٧٩ .

(١١٧) أخبار مجموعة صـ٩٢ .

(١١٨) نفس المصدر والصفحة .

(١١٩) أخبار مجموعة صـ٩٢ - ٩٣ .

(١٢٠) ابن عذارى حـ٢ صـ٤٨ ، المقرى حـ٤ صـ٣٥ ويجعل صاحب الأخبار المجموعة تاريخ الصلح سنة ١٤٠ هـ .

(١٢١) الخشنى - قضاة قرطبة صـ١٤ ولعله يقصد جماعة الجند لأن هذا المنصب (قاضى الجماعة) لم يكن قد ظهر بعد ويطلق صاحب الأخبار -المجموعة صـ٩٤ على هذا القاضى خطأ اسم يزيد بن يحيى .

(١٢٢) أخبار مجموعة صـ٩٥ .

(١٢٣) نفس المصدر والصفحة .

(١٢٤) المقرى حـ٤ صـ٣٥ .

(١٢٥) أخبار مجموعة صـ٩٥ - ٩٦ .

(١٢٦) المقرى حـ٤ صـ٣٦ .

(١٢٧) أخبار مجموعة صـ٩٩ .

(١٢٨) نفس المصدر صـ١٠٠ - ١٠١ .

(١٢٩) ابن عذارى البيان المغرب حـ٢ صـ٥٠ .

(١٣٠) أخبار مجموعة صـ١٠١ .

(١٣١) نفس المصدر والصفحة .

(١٣٢) أخبار مجموعة صـ١٠٢ - ١٠٣ .

(١٣٣) نفس المصدر صـ١٠٤ - ١٠٥ .

(١٣٤) ابن خلدون حـ٤ صـ١٢٣ .

(١٣٥) نفس المصدر السابق والصفحة - وفى الأخبار المجموعة صـ١١٠ أن ابن يقظان كتب إليه (أنى لاأدع عونك) أى أنه سيساعده بشكل خفى وغير مباشر .

(١٣٦) أخبار مجموعة صـ١١٠، ابن خلدون حـ٤ صـ١٢٣ .

(١٣٧) ابن عذارى حـ٢ صـ٥٦ .

(١٣٨) النويرى - نهاية الأرب حـ٢٢ صـ١٣ وقد حدد المبلغ الذى وضع مكافأة لمن يأتى برأس الصقلبى بألف دينار وقد قبضها فعلاً من قام بقتله .

(١٣٩) ابن عذارى حـ٢ صـ٥٦ ابن خلدون حـ٤ صـ١٢٣ وإن كان ابن خلدون يحدد تاريخ قتله عام ١٠٦ .

(١٤٠) ابن الآبار - الحلة البراء حـ٢ صـ٣٥١ .

(١٤١) ابن عذارى حـ٢ صـ٥٧ . ابن الآبار -الحلة السيراء - حـ٢ صـ٣٥٢ ورغم أن مصدر رواية ابن عذارى وابن الآبار واحد وهو الرازى إلا أننا نلاحظ إختلافهما فى تحديد السنة التى جرت فيها الموقعة فابن عذارى يجعلها فى مستهل ربيع الأول سنة ١٦٩ بينما يجعلها ابن الآبار أيضاً فى غرة ربيع الأول سنة ١٦٨ - وفيما تصورى أن تحديد ابن عذارى أوفق لأن سنة ١٦٨ كانت بداية ثورة أبى الأسود وكانت ثورة قوية اشتملت على مواقع عدة ولقاءات كثيرة واستغرقت وقتاً طويلاً لايناسبه أن تبدأ وتنتهى فى عدة شهور من سنة ١٦٨ هـ . كما أن رواية ابن عذارى تؤيدها رواية ابن خلدون حـ٤ صـ١٢٤ التى جعلت بداية ثورة إلى الأسود سنة ١٦٩والنهاية سنة ١٧٠ هـ .

(١٤٢) ابن عذارى حـ٢ صـ٥٨ ، ابن الآبار حـ٢ صـ٣٥ ويجعل ابن الآبار ركانه من أعمال بلنسية ويعلق د. حسين مؤنس على ذلك بقوله . ومن المعروف أن كورة بلنسية تصاقب كورة طليطلة والتقسيم الإدارى، والحدود بين الكورتين ليس واضح لنا هامش صـ٣٥٣ من الحلة السيراء حـ٢ .

(١٤٣) ابن عذارى حـ٢ صـ٥٨ .

(١٤٤) ابن الآبار - حـ٢ صـ٣٥٣. ابن عذارى حـ٢ صـ٥٨ وينسب ابن عذارى قاسماً إلى عبد الرحمن الفهرى ويجعله أخا ليوسف لابنه وهو على هذا عم لأبى الأسود.

(١٤٥) دوزى - تاريخ مسلمى أسبانيا - ترجمة د/ حسن حبشى حـ١ صـ١٥٤ - ١٦٨.

(١٤٦) Iulius Welhausen, Da Arabische Reich Und Sein Sturtz وقد ترجم الكتاب د. محمد عبد الهادى شعيرة بعنوان (تاريخ الدول العربية إلى نهاية العصر الأموى) القاهرة ١٩٥٧، د/ حسين مؤنس - فجر الأندلس صـ٢١٠ - ٢١١ .

(١٤٧) آل عمران آية ١٤٠ .